من آيات الله تعالي

في الأنفس والآفاق

دكتور

محمود محمد عمارة





من آيات الله تعالى
في
الأنفس والآفاق

بطاقة الفهرسة

اسم الكتاب :	من آيات الله في الأنفس والآفاق
تأليف :	د. محمود محمد محمد عمارة
الطبعة :	الأولى
الناشر :	مكتبة الإيمان - مكتبة جزيرة الورد
رقم الإيداع :	١١٨٥٢/ ٢٠١٠

مكتبة الإيمان - المنصورة

أمام جامعة الأزهر ت: ٠٥٠/٢٢٥٧٨٨٢

مكتبة جزيرة الورد - القاهرة

شارع محمد عبده - أمام الباب الخلفى لجامعة الأزهر

ت: ٠١٢٢١٠٨٤٩٣ / ٠٢/٥١١٤٣٧١

مكتبة جزيرة الورد - القاهرة

ميدان حليم خلف بنك فيصل - شارع ٢٦ يوليو من ميدان الأوبرا

٠١٢٩٩٦١٦٣٥ / ٠١٠٠١٠٤١١٥ / ٠٢/٢٧٨٧٧٥٧٤ / ٠١٠٠٠٠٤٠٤٦

من آيات الله تعالى في الأنفس والآفاق

الدكتور. محمود محمد محمد عمارة
الأستاذ بجامعة الأزهر

مكتبة الإيمان ـ المنصورة
٠٥٠/ ٢٢٥٧٨٨٢

مدخل

إذا احتملت الآية عدة معان ... فهي مرادة كلها ... إن لم يمنع من أمرها منع.. بخلاف كلامنا نحن البشر :فإنه يدل على معنى واحد ... وإذا أردنا معانى أكثر عبرنا بما يوضح ذلك .

الإنسانيات : أوسع دائرة من الكونيات .

القرآن :ستة آلاف آية أو أكثر .. منها :

سبعمائة آية تقريبًا كونيات ، ٥٥٠٠ آية إنسانيات .

وذلك لأن هناك شيطانًا يوسوس ... ولابد من ملاحقته وهزيمته ؛ لأن الشيطان يدعو الإنسان إلى مقاومة سنن الله فى الكون والنفس .

ثم هناك : سطوة البيئة . وغريزة التقليد . وضغط الملأ : الأقوياء ، الأغنياء .

ومن صور مقاومة الشيطان :

كان ﷺ يهب من فراشه قبيل الفجر مقاومة منه للشيطان ... لأن التثاؤب والتراخي ... ربما أعان الشيطان على الإغواء .

الآيات الإنسانية

الآيات الإنسانية هي :

ما يتعلق بروح الإنسان ونفسه . . . لا بجسمه .

ولله تعالى سنن تتعلق بالنفس . كما أن له سبحانه سننًا تتعلق بالكون .

وتكتشف هذه السنن بالملاحظة والمراقبة .

لكن ذلك أمر صعب . . . إلى حد ما .

والمصدر الحق لها هو :

الكتاب . . . والسنة . . . لأنهما من عند الحق سبحانه وتعالى .

والرسول لا يخطئ ؛ لأنه تحت إشراف الوحي الأعلى والسنة من القرآن .

وإذن فلابد من حفظها . . . وإلا ضاع الدين .

شبهات مردودة

وإذن : فالطعن في السنة أو التشكيك فيها . . باطل فقد سخر الله من يحفظها وإليكم التفصيل :

تمهيد :

يقول الله عز وجل :

﴿ **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ** ﴾ [فصلت : ٥٣] .

وهذا وعد من الله عز وجل بإرائنا آياته وعجائب قدرته في الأنفس والأكوان تجلية للحق .

وذلك يعنى :

أننا باسم القرآن مطالبون بإنشاء علم خارج القرآن . . . لكنه يؤكد فى نفس

الوقت حقائق القرآن .

وذلكم ثروة من السنن الإلهية يدعم الله تعالى بها الحق .

ومن تدبير الله عز وجل أن هيأ لها من يكتشفها . على ما يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝ ﴾ [سبأ] .

وتبقى جماهير غفيرة محجوبة عن هذه السنن بهذه الآفاق :

١ ـ الغفلة .

٢ ـ التكذيب .

٣ ـ الاستكبار .

وهنا يبرز فريق ثالث يدرك بعض هذه السنن . . . ثم يتولى تقديمها مذكرًا بها الغافلين . . مؤدبًا بها المكذبين والمستكبرين ـ وأرجو أن أكون واحدًا منهم ـ فى زمان لم يكف فيه هذا الأسلوب التقليدي فى عرض حقائق الإسلام ولابد من هذه السياقة فى بستان الكتاب المسطور : القرآن الكريم . . . والكتاب المنظور : الكون المشاهد .

وتلك خلاصة هذا الكتاب الذي بين يديك . . والذي أرجو به تنبيه الدعاة إلى نفاسة ما يملكون من بيان يمكن أن يبصروا به الإنسان .

درس للدعاة :

ولا شك أن فى الكون والنفس أسرارًا من شأنها أن تقوم بدورها فى التذكير بقدرة الله تعالى . . . لتكون سلاحًا فعالاً فى أيدى الدعاة إلى الله تعالى .

من روائع الحكمة الإلهية :

١ ـ أن يكون جسم الإنسان فى درجة حرارة واحدة داخل الحجرة لكن أجهزته بالداخل تتفاوت في حاجاتها .

فلابد للكبد من درجة حرارة ٤٠٪ وللعين ٩ ٪ وهكذا .

٢ ـ انسجام الجماد والأحياء :

يحتاج الإنسان والحيوان والنبات إلى الأوكسجين ليتمكن من تحويل الأغذية التي فى دمه إلى : طاقة حرارية . .

وطاقة حركية . .

والأوكسجين فى الهواء . . يأخذه الإنسان بالشهيق فيمتصه الدم فى الرئتين محوِّلاً الأغذية إلى طاقة . . ومحولاً الأوكسجين باتحاده بالكربون إلى غاز ثاني أكسيد الكربون الذي يعود فيخرج إلى الهواء بعملية الزفير .

ولو استمر الأحياء فى التنفس هكذا . . لاستهلكت كل كمية الأوكسجين فى الهواء . وحوّلته إلى الكربون . وحينئذ تموت الأحياء لفقدان الأوكسجين .

ولكن حكمة الله تعالى أرادت الحياة للجميع .

فجعل سبحانه وظيفة النبات عكسية فهى تمتص غاز الكربون الذى تطلقه الحيوانات إلى الجو . . وتحوله إلى غذاء . .

ثم إلى أوكسجين . .

وهكذا لتستمر الحياة .

٣ ـ ولما كان التلف يسرع إلى بيض بعض الحيوانات شاءت إرادة الله تعالى أن يكون إنتاجها وفيرًا . . لتبقى منه بقية يحفظ الله بها النوع .

٤ ـ وبعض الحشرات عرضة للفناء . . فأراد سبحانه أن تبقى لتؤدى وظيفتها فجعل لونها كلون النبات الذى تتغذى به حتى لا يكتشفها أحد .

٥ ـ بعض أنواع البكتريا تقضى على بقايا بعض الأجسام الميتة التى تخلفها الحيوانات والنباتات ، ثم تحولها إلى :

أ ـ أسمدة .

ب ـ غازات كغاز « البوتان » للوقود .

ولقد استخدم أخيرًا :

أ ـ لتوليد الكهرباء .

ب ـ لصنع البلاستيك .

٦ ـ أكثر النجوم التى نراها شموس كشمسنا . . وربما كانت أكبر ومعنى ذلك : أن الكون كله انفجارات نووية هائلة الإشعاع .

فإذا علمنا أن درجة حرارة نواة الشمس ١٥ مليون درجة .

وإذا تصورنا الانفجارات المستمرة فى هذه الشموس . . وما تُصَدّره من إشعاعات نووية .

إذا علمنا هذا تبين لنا أن الله على كل شيء قدير . . . وأنه هو الرب الرحيم الذى أبقى أرضنا باردة ، صالحة للحياة ، بما فيها من أنهار وأشجار وحَبِّ الحصيد أبقاها وسط هذا اللهيب المستعر .

وننظر إلى تلك النجوم ، أو قُل : إلى هذه الشموس فإذا هي جميلة ، نستمتع برؤياها ، وصدق الله العظيم إذ يقول :

﴿ **وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ** ﴾ [الملك : ٥] .

بل إن باطن الأرض ملتهبٌ التهابًا يفجر البراكين والزلازل ، ومع هذا فالحياة فوقها ميسرة .

ولو كانت قشرة الأرض أكبر مما هي عليه لامتصت كل ثانى أكسيد الكربون .

ولو كانت أرق لما استطاعت حجز الزلازل والبراكين .

ومع البراكين تخرج المعادن . . . والغازات وما هو مفيد .

وسبحان الله الخالق المدبر الذى جعل لكم الأرض مهدًا : ﴿ **الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً** ﴾ [الملك : ١٥] .

جعل تعالى الأرض : ذلولاً . . . ممهدة . . . ميسرة للساعين . مفتوحة الآفاق: سهولها وجبالها لمن يبتغون التجول فى أقطارها : تعلمًا . . واعتبارًا . . أو كدحًا . وارتزاقًا .

وطلب منهم ـ طلب إرشاد ـ ألا يجتمعوا فى مكان واحد حتى لا يقل الموجود من الرزق عن المطلوب .

بل عليهم الانطلاق فى آفاق بعيدة يستغلونها بالزراعة والتجارة . . ويتبادلون فيها المنفعة مع غيرهم .

وفى الآية : حث على العمل بربط المشي بالرزق .

وهكذا يزامل الإسلام الإنسان فاتحًا بصره وبصيرته على ما فى الكون . بما يحرص العقل على البحث والنظر .

وخذ مثلاً أخيرًا .

الذباب : فقد أعلن رسول الله ﷺ أن فى أحد جناحيه دواء . . وفى الآخر داء .

وقد أطلق ذلك إطلاقًا . . . ولم يحدد فى أي الجناحين يكون الداء أو الدواء .

ذلك لينشط العقل ويبحث .

وقد بحث العقل الإنسانى فعلاً . . . فلاحظ أن الذباب يتوقى الخطر بجناحه الأيسر . فاستنبط من ذلك أنه الجناح المركوز فيه الداء .

الفصل الأول

الإنسان فى مرآة القرآن

الفصل الأول
الإنسان : فى مرآة القرآن

يقول الله عز وجل : ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ (٢١) ﴾ [الغاشية] .

فطر الله عز وجل الخلق على معرفته تعالى وتوحيده والرسول ﷺ مأمور بتذكير الخلق بما هو مركوز أساسًا فى فطرهم وغرائزهم : أنها لا تتخلف ولا تتخالف ولكنها ثابتة مطردة .

مما يدل على توحيده عز وجل .

وليس هو مأمور بقتالهم وقهرهم . . وإنما وظيفته البلاغ .

فمن آمن . . فبها . . ومن كفر فقد ظلم نفسه . وسوف يعذبه الله العذاب الأكبر .

إن الله عز وجل خلقهم قابلين للتوحيد ودين الإسلام غير نائين عنه ولا منكرين له . لكونه مجاوبًا للعقل . مساويًا للنظر الصحيح . . . حتى لو تُركوا لما اختاروا عليه دينًا آخر .

ومن غوى منهم . . . فبإغواء شياطين الجن والإنس .

﴿ لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾ [الروم : ٣٠] .

فما خلقه تعالى . . . فعلى سنن كاملة . . ثابتة لا يبدلها أحد . . . وإذن فليس من حقنا تبديل شرع الله تعالى بمذاهب أجنبية .

كيف وقد شهد الأجانب أنفسهم بحقيقة هذا الدين الذى كان الاستمساك به سبيلنا إلى النصر المبين .

كتب صحفى فرنسى فقال :

إن الذى هزم فرنسا فى الجزائر . . . هو المرأة الجزائرية . . وليس الرجل !!

ثم قال :

إن المرأة المحتشمة المتدينة هى التى تصنع الرجال !!

أى أن قيمة العفة كانت سلاحًا بتارًا أدّب الله تعالى به المستعمرين !!

ومعنى ذلك أن حل مشكلاتنا محمول فى صدورنا وليس فى الخارج !!

وذلك أجدى من تصيد الحلول من هنا وهناك وصحيح أن هناك نوايا طيبة .. ولكن النوايا الطيبة وحدها لا تكفي .. وإن كانت خيرًا فى ذاتها .

وأيضًا : العمل الظاهر وحده لا يكفى :

إن النية خير . والعمل القائم على نية الخير : خير أرفع .. لأنه العمل الأخلاقي الكامل .

من المستبعد : الحكم على الأمور برأينا وحده : نحن نعلم أنه فى مجال الحقائق المنزلة يجب أن نطبق منهجًا مناسبًا .. باللجوء إلى النصوص التى أوحت إلينا هذه الأمور .

وكل ما نملك : أن نحسن الاختيار .

ولكن قد يتورط الإنسان عن ما لا يحصل على خط نفسه الذى قدره فيقول : بظلم القدر !!

والموقف الأمثل هو :

أن نواجه همًا واحدًا هو : هم تنفيذ الواجب : فلنقبل على الله تعالى إقبالاً كاملاً والباقى على الله سبحانه وتعالى .

يقول ﷺ : « من جعل الهموم همًا واحدًا كفاه الله ما أهمه من أمر الدنيا والآخرة ، ومن تشعبت به الهموم لم يبال الله فى أى أودية الدنيا هلك » [الترمذى كتاب صفة القيامة] ، فوضوح الهدف .. والتركيز على القرب منه .. يكسب العمل استقلالاً وكمالاً .

وبهذه الروح ننطلق من دنيا الأكوان إلى دار هي الحيوان . مستعلين فوق هذا

الواقع : واقع المسلمين اليوم . . والذى يتآكل بين نقيضين هما : الاستكبار والذل .

بين الخوف والرجاء :

يقول الله عز وجل فى سورة البقرة : ﴿ **الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ** ﴿٤٦﴾ ﴾ وتلك واحدة من خصائص الخاشعين الذين يمتزج فى قلوبهم : الخوف بالرجاء . وفى هذا المعنى يقول الحسن البصرى رحمه الله :

« المؤمن لن يأمن من الخوف مع أنه صالح ـ لأنه دائمًا شاك : فيعيش بين وازع الخوف . وحادى الرجاء » .

وتلك خصيصة الإنسان السوى الذى عناه ابن الرومى بقوله :

أخاف على نفسى وأرجو مفازها
وأستار غيب الله دون العواقب
ألا من يرينى غايتى قبل مذهبى ؟
ومن أين ؟! والغايات بعد المذاهب

ومن أجل ذلك كان التنديد بمن يغفل عن هذه الحقيقة بما روى عن الحسن البصرى القائل :

ومارأيت يقينًا لا شك فيه . . . أشبه بشك لا يقين فيه : من الموت !!

ومن أجل ذلك . . تلاحظ من غفل عن هذا الحق المر : مثل الذى تغنى به الشاعر القائل :

وما فى الأرض أشقى من محب
وإن وجد الهوى حلو المذاق
تراه باكيًا في كل حين
مخافة فرقة أو لاشتياق
فيبكى إن نأوا شوقًا إليهم
ويبكى إن دنوا خوف الفراق

فتسخن عينه عند التنائى

وتسخن عينه عند التلاقى

والطرب يحتمل الفرح والترح دون الراحة وهى الغاية التى تبتغيها جليلة بنت مرة التى لا تدرى أيشفى غليلها بالثأر لزوجها أو أنها ستكون مصابة أيضًا لأن الذى سيكون به الثأر ضحية أخرى ، إنها لا تستطيع الانتصار ولا تطيق الانكسار ، لأنها قاتلة مقتولة ونحو ذلك ما عبر عنه الحماسى :

قومى هم قتلوا - أميم - أخى

فإذا رميت يصيبنى سهمى

وكثيرًا ما لاكت ألسنتنا هذا التعبير : « سعادتنا بترقيتك لا يعدلها سوى حزننا لفراقك » ولذا قد يكون الإنسان سعيدًا وتعيسًا فى وقت واحد ، وها هو ذا باحث صغير لديه بحث يقدمه على وجل لأستاذه ، ثم يجد أستاذه قد نسبه إلى نفسه ، إنه يسعد لأن بحثه جدير بما نيط به وعول عليه ، ويتعس لأنه سلب منه وعاد للأستاذ ولم يكن له .

ومن هنا قد يكون الداء دواء :

دع عنك لومى فإن اللوم إغراء

وداونى بالتى كانت هى الداء

وما الدواء سوى تمكين للداء ، إنها اللذة المؤلمة والألم اللذيذ الذى يتحدث عنه العاشقون وتجده لدى الصوفية ، وبالحك الذى هو إيلام يلتذ ذو الجرب ومنه :

ضنى فى الهوى كالسم فى الشهد كامنًا

لذذت به جهلاً وفى اللذة الحتف

إنه اللذة والألم معًا الذى يجده الباحث فى بحثه والأم فى سهرها على وليدها حيث الألم يستعذب والمرارة تستطاب ، فحلاوة الظفر بمرارة السهر ، أو ليس هناك من يبكى فرحًا وهناك من يضحك سرورًا ظاهرًا بينما هو يعانى ما يعانى ، إنها ابتسامات الهزائم ودموع الأفراح .

وفى حديث رسول الله ﷺ : « إن المنبت لا أرضًا قطع ولا ظهرًا أبقى » فالمنبت سريع مسرف فى سرعته متوان غاية فى توانيه لأنه لا يصل لشىء ، شأنه شأن المتوانى الذى لن يصل إلى هدفه والصريع المتعجل الذى يـجانبه الصواب وتحالفه الندامة دومًا ويكونان حائلاً بينه وبين بلوغ ما يسعى إليه .

وها هو ذا الشاعر يقرر أنـه ليس غناؤه وكفايته مثل الرعاة المقصـور سعيهم على حفظ القلاص فى مراعـيها فإذا أوى إلى موضع أوى إليه كلبـه الذى يحرسه وربعه ، إنه شريف رئـيس . . وليس شأنه شـأن العبد الذى إذا كـان لغيره نوبة فـى الركوب كانت نوبـته سرعة المشـى حتى تنقطع نـعله ، وإنما هو من أهل الشـرف لا من أهل الخدمة ، والـعبد فيهـم يكون مستريـحًا فلا يكلفـونه ما لا يطيق وهم يحـملون من تكاليف القيام بشأن عشيرتهم ما لا تتـحمله الهضاب العظام ، وهم لا يعملون عملاً إلا مع التأنى والتروى ، فلذلك بعض القـوم الذين لا تجربة لهم يظنون أنهم بطآء ولا يعلمون أن إبطاءهم فيه سرعة ، وكذا قال الشاعر :

لا قوتى قوة الراعى قـــلائصه

يأوى فيأوى إليه الكلب والربع

ولا العسيف الذى يشتد عقبتـه

حتى يبيت وباقى نعله قطـــع

لا يحمل العبد فيه فوق طـاقته

ونحن نحمل ما لا تحمل القلع

منا الأناة وبعض القوم يحسبنـا

أنا بطـاء وفى إبطـــائنا ســـرع

وبذلك تجد القريب البعيد « المحبوب الممتنع » والمتقدم المتأخر « المتردد » والبطىء السريع « المخطط » والمريـض الصحيح « الناقِةْ » والحى الميت « الـحَرَض » واليقظان النائـم « الغامض » الحـزين الفَرِح « ورثة المـيت » الضعـيف القوى « المرأة » الـقوى الضعيف « الفارس المحب » .

وحفظت لنا أمثال العامة « أم العروسة فاضية وملخومة » وتجد الرابح الخاسر ، والضار النافع ، والآمل اليائس ، والمتكبر المتطامن ، والطاعم الجائع ، والكاسى العارى ، والمتصل المنفصل .

فهل هذا من ألوان الاتساع فى العربية كما يزعم فريق ، إنها الدقة اللغوية فى أسمى صورها حيث ترتبط الأسباب بالحياة .. وإلا فأين الكلمات التى تعبر عن مثل هذه المواقف ؟

إن لم تكن الأضداد فلنبحث عنها .

الإنسان من العدم إلى الوجود :

يقول الله عز وجل : ﴿ **هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا** (١) ﴾ [الإنسان] .

من مقاصد سورة ... الإنسان :

ترهيب الإنسان : بمعنى إنشاء معنى الحذر والهيبة فى قلبه وذلك ابتغاء كسر غروره .. حتى لا يركن إلى هواجس نفسه .

ويُعجب بظاهر حسه ، ثم ينسى ما بعد حلول ربه .

فقد عرَّفته السورة [بحالة ... وابتداء أمره ليعلم أنه لا طريق له : للكبر واعتقاد السيادة لنفسه] .

وإذا كان الله عز وجل قد منحه من الألطاف الربانية والاعتناء به ، فينبغى أن يعتقد أن ذلك ما جاءه إلا تفضلاً .. ولا يستحقه ابتداء .

﴿ **وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ** ﴾ [النحل : ٥٣] .

ثم إنها كما يقول صاحب الظلال : [هتاف رخىّ ندى إلى الطاعة ، والالتجاء إلى الله وابتغاء رضاه ، وتذكير نعمته ، والإحساس بفضله ، واتقاء عذابه ، واليقظة لابتلائه . وإدراك كلمته فى الخلق والإنعام والابتلاء والإملاء] .

ولقد قرأ رجل هذه السورة عند عبد الله بن مسعود رضي الله عنه فقال : يا ليت ذلك لم يكن .

قالها مستشعرًا عظم المسؤولية التى يشى بها مطلع السورة المهَيب .

أهميتها :

جاء فى تفسير « أضواء البيان » أن (السنة قد جاءت بقراءة هذه السورة الكريمة فى الركعة الثانية من فجر يوم الجمعة) .

وقيل فى تعليل ذلك :

إنه : لما كان يوم الجمعة يوم إيجاد الإنسان الأول ويوم أحداثه كلِّها : إيجاد من العدم . .

وإنعامًا عليه بسكنى الجنة ، ووجوده على الأرض . .

وتلقَّى التوبة عليه من الله . . أى يوم الإنعام عليه حِسًا ومعنى ، فناسب أن يذكِّر الإمام بقراءة سورة السجدة فى فجر يوم الجمعة لما فيها من قصة خلق آدم فى قوله تعالى : ﴿ **الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ (٨) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ** ﴾ . ثم حذر من نسيان يوم القيامة ﴿ **فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا** ﴾ [السجدة] .

وهكذا فى الركعة الأولى :

يرجع المسلم إلى أصل وجوده . ويستحضر قصة الإنسان الأول . وكذلك يأتى فى الركعة الثانية بقصته هو منذ بدأ خلقه ﴿ **نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ** ﴾ ويذكره بالهدى الذى أُنزل عليه ويرغِّبُه في شكر نعمِ الله عليه ويحذره من جحودها وكفرانها .

﴿ **هَلْ أَتَى ...** ﴾ فى خطابنا اليومى ، قد تقول لصاحبك : هل وعظتك ، هل أعطيتك ، وأنت تعنى بذلك : أنك أعطيته . . ووعظته فعلاً لكنك بدلا من أن تقول له : قد وعظتك تختار أسلوب الاستفهام ، قاصدًا بذلك أن يُقِرّ بذلك الوعظ . . وهذا العطاء . . ليكون بإقراره شاهدًا على نفسه . . وذلك أبلغ فى الإفحام .

وهذا هو المعنى المفهوم من قوله تعالى : ﴿ **هَلْ أَتَى ...** ﴾ فهو استفهام تقريرى . . يراد به أن يعترف الإنسان بذلك . . ليكون ذلك الاعتراف سبيلاً إلى اقتناعه بالقضية المعروضة .

وكما قيل : كأنما يسأل الإنسان نفسه :

ألا يعرف أنه أتى عليه حين من الدهر لم يكن شيئًا مذكورًا ؟ ثم . . . ألم يتدبر هذه الحقيقة ويتملاها ؟

ثم . . ألا يفعل هذا الشعور فى نفسه بنعمة اليد الكريمة التى دفعته إلى مسرح الحياة ، وسلَّطت عليه النور ، وجعلته شيئًا مذكورًا ، بعد أن لم يكن شيئًا مذكورًا ؟

وسوف يستيقظ الإنسان من غفلته . . فاتحًا بصيرته على ماضيه وحاضره . . مستعدًا لمواجهة المستقبل بعدَّة الإيمان بالخالق العظيم الذى منحه الحياة وأن إليه منتهاه ورُجعاه !!

من صور الخطاب الدينى :

ولقد كان من الممكن أن يقال : قد أتى على الإنسان . . . وهو المعنى المقصود هنا .

ولكن الحق سبحانه وتعالى يستفتح القضية بحرف الاستفهام : هل ؛ ليكون ذلك درسًا من دروس الدعوة يؤكد أن وظيفة الداعى لا تنتهى بمجرد الأمر أو النهى . وإنما عليه أن يحتال على المدعو ليُقبل على المأمور به . وينتهى عن المنهى عنه بمحض اختياره .

وهذا ما حققه الاستفهام هنا : لأنه ينتزع منه الاعتراف بصحة ما يخاطب به . فإذا اعترف بأنه كان فى وقت ما : عَدَمًا . . وقف معنا بهذا الاعتراف على أرض مشتركة . لينطلق الداعى والمدعو معًا من هذا الوفاق . . إلى التلاق .

التلاقى على طريق واحد . يصل بهما إلى المقصود . أما مجرد إلقاء الموعظة . فقد لا يحقق الأمل المنشود .

لقد كان الإنسان فى فترة ما . .كان وهمًا . . كان طيفًا ، ثم نزل على هذا الوجود ضيفًا . . وهى نعمة يمنها عليه خالقه أن أكرمه ونعمه . . حتى صار هذا الكائن العجيب . . هذه الحلقة الذهبية فى سلسلة الموجودات.

وعلى الدعاة اليوم . . وفى ضوء الآية الكريمة أن يدركوا كم من قيود العادات

تمنع المدعو من إجابة الدعوة . ونحن مكلفون أن نخاطبه برفق ولين . فلعله أن يستكين .

جذور الإنسان :

يقول الحق عز وجل فى سورة الإنسان : ﴿ **إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا** ② ﴾ [الإنسان : ٢] .

إذا كانت الآية السابقة قد بينت مطلق خلق الإنسان . وأنه خلاصة الكون . وبعد أن كان فى ضمير الغيب . وهمًا . أو طيفًا . فقد نزل على هذا الوجود ضيفًا! فإن الآية الكريمة تفصل إجمال خلقه هذا تفصيلاً . . شاهدا بعلم الله الشامل . وبقدرته . القاهرة وإرادته النافذة . وذلك قوله عز وجل : ﴿ **إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ . . .** ﴾ .

والنطفة هى : الماء الصافى . . أو هى اللؤلؤ المشرق اللون .

﴿ **نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ** ﴾ امتزج فيها الماءان : ماء الرجل . . بماء المرأة . وإذ تقول اللغة أن المشيج هو : كل لونين اختلطا . فإن الجنين يتقلب فى بطن أمه : نطفة . فعلقة . فمضغة . ثم يكون خلقًا آخر .

ثم تستقبله الحياة أمشاجًا . . خليطًا . يحمل خصائص أجداده وآبائه . فتنظر إليه لترى فيه ملامح أبيه . وملامح أمه فى نفس اللحظة . بحيث لا تستطيع عزل ملامح كل منهما . وإنما تراهما فى آن واحد . . . يتراءى لك على وجه الطفل الصغير .

ورغم اختلاف مواصفات الماءين . . إلا أن الله عز وجل يمزج بينهما مزجًا صارا به بشرًا سويًا .

من دلائل القدرة :

وتأمل كيف خلق الله من هذه الأخلاط . . من هذه الأمشاج بشرًا سوى الخلق معتدل المزاج : (دوّر الرأس . وشق فى جانبيه السمع . وفى مقدمه : البصر . والأنف . والفم . وشق فى البدن سائر المنافذ . ثم مد اليدين والرجلين . وقسّم

رؤوسها بالأصابع . وركَّب الأعضاء الباطنة : من القلب . والمعدة . والكبد . والطحال . والرئة . والمثانة) .

فسبحان من خلق تلك الأشياء من نطفة . مهينة : كوّن منها العظام .. مع قوتها وشدتها . وجعلها عماد البدن . وقدَّرها بمقادير وأشكال مختلفة .

فمنها صغير وكبير ، وطويل وقصير . وعريض ومستدير . ومُجوّف ومصْمت . ودقيق وثخين . ولم يجعلها عظمًا واحدًا . لأن الإنسان محتاج إلى الحركة بجملة بدنه . وببعض أعضائه .

ثم جعل بين تلك العظام المفاصل . ثم وصَلَها بأوتار أثْبتَها من أحد طرَفَيِ العظم وألصقها بالطرف الآخر .

ثم خلق فى طرفى العظم زوائد خارجة .. وفى الآخر حُفَرًا موافِقةً لِشكْلِ الزوائد لتدخل فيها .

وخلق الرأس مع كُرِيّته من خمسة وخمسين عظمًا مختلفة الأشكال . وألّف بعضها مع بعض (١) . فتبارك الله أحسن الخالقين .

من أسرار الابتلاء :

وهذا الخلق العجيب لم يكن عبثًا .. وإنما هو الابتلاء والاختبار على ما يقول البقاعى : (لما كان الإنسان مركبًا من روح خفيف طاهر . وبدن هو مُركَّبُ الحظوظ والشهوات . فكان الروح بكماله . والبدن بنقصانه . يتعالجان : كل منهما يريد أن يغلب صاحبه . لما كان الأمر كذلك .. قوَّى سبحانه الروح بالشرع الداعى إلى معالى الأخلاق . الناهى عن مساويها . المبين لذلك غاية البيان .. فقال عز وجل : ﴿ نَّبْتَلِيهِ ﴾ [الإنسان] أى فعلنا ذلك : لنقيم عليه الحجة) .

من مظاهر الفضل الإلهى :

ومن رحمته تعالى بالإنسان أن زوده بما يمكِّنه من التحرك الاختيارى إلى اليمين .. أو اليسار . إلى الخلف . أو إلى الإمام ، ولم يكن الإنسان ذلك الرجل الذى عناه

---

(١) تفسير البقاعى .

الشاعر بقوله :

ألقاه فى اليم مكتــــوفًا وقال لــــه :

إيـــاك إيـــاك أن تبتـــل بالمـــاء

ولكنه عز وجل زوده بما يخوض به رحلة الحياة . . ليكون فى النهاية سيد مصيره فى إطارٍ من مشيئته عز وجل : فجعله سميعًا . . وجعله بصيرًا .

ولماذا السمع والبصر ؟ :

لقد زوده الحق تعالى بكثير من الجوارح والمدارك . . التى يطل منها على الحياة. . ليُحسِنَ التعامل معها .

ولكنه خص من هذه الجوارح وهذه المدارك بالذات : السمع والبصر .

ذلك بأنهما فى طليعة ما مَنَّ الله به تعالى على الإنسان من منافذ المعرفة .

(فإذا كانت المعـدة لإنضاج الطعام . والكبـد لإحالته إلى دم) فإن للسـمع كما للبصر وظيفتهما الأعظم :

فمن ناحـية الكم : فالإنســان يدرك بهما أكثـر المعارف . ومن ناحيـة الكيف : فالإنسان يشاهد الدلائل ببصره . ويسمعُ الآيات بسمعه ويعرف الحجج ببصيرته .

(وقدم السمع لأنه أنفع فى المخاطبـات . ولأن الآيات المسموعة أبين من الآيات المرئية) ولاحظ من بلاغة الآية الكريمة : أن الإنســـان ليس مجرد « سـامع » ولكنه « سميع » يسمع . . ثم يستمع . . ثم يستمتع !!

ثم هو قادر على رؤية السطور وما وراء السطور . . ببصره وبصيرته معًا .

وهذا دليل عـلى أن الحواس السليـمة أسباب كـلّية لتحـصيل العلـم . ومن هنا قالوا: من فقد حاسة . فقد فقد علمًا .

وإذ يمنحنا الله تعالى هذه النعم التـى كان بها وجودنا . . فإن شكرها واجب في أعناقنا بتسخيرها فيما خلقت له . لتبقى معنا . . لا تفارقنا .

نعمة الاهتداء :

يقول الله عز وجل : ﴿ **إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا** (٣) ﴾ .

تمهيد : يقول الشاعر المسلم :

إذا لم يكن عون من الله للفتى

فأول ما يجنى عليه اجتهاده

ولقد كان من رحمته تعالى بالإنسان أن سلحه بالسمع والبصر . ثم بالعقل الهادى .

وهنا سؤال يفرض نفسه : لِمَ قدم الحواس على العقل .. وكان الظن أن يكون العقل فى المقدمة ؟ وقد أجاب المفسرون (١) بما يلى : (الآية دالة على أن إعطاء الحواس كالمقدم على إعطاء العقل .. والأمر كذلك : لأن الإنسان خُلق من مبدأ الفطرة خاليًا عن معرفة الأشياء . إلا أنه تعالى أعطاه آلات تُعينه على تحصيل تلك المعارف وهى : الحواس الظاهرة والباطنة .

فإذا أحسَّ بالمحسوسات .. تنبه لمشاركات بينها ومباينات أيضا ينتزع منها عقائد صادقة أولية : كعلمنا بأن النفى والإثبات لا يجتمعان ولا يرتفعان .. وأن الكل أعظم من الجزء وهذه العلوم الأولية هى آلة العقل ؛ لأن بتركيباتها يمكن التوصل إلى استعلام المجهولات النظرية ، فثبت أن الحس مقدم فى الوجود على العقل) .

وتأمل كيف كانت النعمة .. لا في مجرد آلة السمع وآلة الإبصار .. ولكنها كانت في إقدار الإنسان على أن يسمع .. وأن يرى .. ثم ليَعرض ما رآه وما سمعه على عقله الذى به يهتدى إلى الحق .

وسائل الهداية :

ومن لطف الله تعالى بالإنسان أنه لم يجعل للهداية طريقًا واحدًا وإنما تضافرت أسباب الهداية عنايةً بالإنسان ، وحضًا له على أن يسلك سبُلها :

أ ـ فقد أنزل عز وجل عليه الكتب .

ب ـ وأرسل إليه الرسل .

---

(١) الرازى .

جـ ـ ونصب بين يديه من الدلائل فى الأنفس والآفاق .

د ـ ثم وهبه البصيرة الكاشفة . . (والتى تميز بين الصدق والكذب . وكلام الخلق ، وكلام الخالق ، والحق والباطل) .

وإذا كانوا يقولون : ليست الحكمة أن تعرف الطريق ولكن الحكمة هى : أن تمشى فى هذا الطريق ، فقد قدر الديّان الإنسان على أن يمضى فى هذا الطريق . باختياره . واقتداره . بما منحه من الحرية والقدرة على الاختيار . والترجيح .

وحيث مَنّ الله تعالى عليه بالإيجاد . . والإعداد . . والإمداد . . والإسعاد . . فعليه أن يأخذ سبيله . وعليه قبل ذلك أن يتحمل نتيجة اختياره . إمّا شاكرًا بتوفيق الله . فُمثاب وإما كفورًا بسوء اختياره . فمُعاقب .

إن الإنسان وليدُ يومه : فإما اغتنام الفرص . . وإما النقص والغُصص !! إن الهداية هى طوق النجاة ، ولقد ألقاه تعالى . . إنقاذا للإنسان من الطوفان . . وما يزال عظيمًا ما عظّم الله تعالى . . وعظّم أوامره .

أما الكفُور . . فسوف يلقى جزاءه . . ﴿ **يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا** ﴾ [آل عمران : ٣٠] .

ويستحيل أن يستوى الشاكر . . والكافر . الذى سيبعث صفر اليدين . وإذا كنت لا تحمل فى عربتك إلا القش . . فلن تكون فى يوم ما . تاجر حبوب !!

إن الإسلام هو « السبيل » السبيل الذى لا طريق سواه والذى يصل بنا إلى مرفأ النجاة . . وكل ما عداه من مذاهب . . لا شىء !!

وعلى الإنسان أن يكون عند حسن الظن به . . لقد قدم السياق ذكر الشكور . . على الكفور : قدمه فى الذكر . . وفى المرتبة معًا . تحريضًا لنا .

ولاحظ من حكمة مُنزِل القرآن سبحانه وتعالى . . أن السورة لمّا اشتملت على تشريف الإنسان . . الذى خُلِقت من أجل الأكوان قدم فى الذكر والرتبة ما هو أليق بهذا الشرف المنيف . . فى الوقت الذى أخّر فى الذكر والرتبة « الكفور » فلعل الإنسان أن يستشعر أهمية مركزه فى الكون . . لينحاز إلى الحق ابتداء . . نافرًا أشد

النفور من الكفران الذى لا ينسجم مع شرف الإنسان .

أضف إلى ذلك أنه بدأ بالشكر . لأنه الأصل كما جاء فى الحديث المتفق عليه: « كل مولود يولد على الفطرة : فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » .

يقول صاحب الظلال :

(ويشعر الإنسان بجدِّية الأمر ودقته .. بهذه اللمسات . ويدرك أنه مخلوق لغاية . وأنه مشدود إلى محور . وأنه مزود بالمعرفة . فمحاسبُ عليها . وأنه هنا ليُبْتَلى ويجتاز الابتلاء . فهو فى فترة امتحان يقضيها على الأرض . لا فى فترة لعبِ ولهو وإهمال) .

ولاحظ من فقه الآية الكريمة : أنها تعبر فى جانب التوفيق بقوله تعالى : شاكرًا . . بلا مبالغة .

وفى جانب الخذلان بقوله تعالى ﴿ كفورًا ﴾ بصيغة المبالغة .

وقد اجتهد المفسرون فى تعليل ذلك فقالوا ما فحواه :

(أن إحساس الإنسان غير موفٍ . وأن إساءته مُفْرطة) ومعنى ذلك : أن الإنسان مجرد « شاكر » مهما شكر .. لأنه لن يوفى بشكره ولو طال مداه حقّ نعمة واحدة من ملايين النعم التى تواكب حياته : من مهده .. إلى لحده ! ثم هو كفور . لأن معصيته مهما قلّت . فهى معصية فى حق العظيم . الذى بدأه بالإنعام . فكان منه الكفران !

أما بعد : فإذا كان القرآن حجةً لك .. أو عليك وبلا واسطة فإنا نشتق من ذلك قاعدة ينبغى أن تحكم علاقاتنا الاجتماعية وهى : أن الإسلام يرفض المساومة .. واللعب على الحبال :

فإما أن تكون أخى بحق فأعرف فيك غثى من ثمينى
وإما فاتركنى واتخذنى عدوًا أنفيك وتنفينى

المعاندون .. وماذا سيلاقون :

يقول الله عز وجل : ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ

الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾﴾ [الإنسان] .

تمهيد :

بعدما أنعم الله عز وجل على الإنسان بنعمتى : الإيجاد .. ثم الإمداد كان عليه أن يقيد النعمة بالشكر .. ولكن فريقًا من الناس يجعلون من شكر النعمة أن يكفروا بواهبها سبحانه وتعالى .

فإذا أعد الله تعالى لهم عذابًا .. كِفاءَ ما أجرموا .. كان ذلك عدلاً .. فليس أشقى من أناس تجيئهم بالهدى .. فيواجهونك بالضلال .. والخبال :

ومع مثل هؤلاء الجاحدين .. كان حوار واحدٍ من العقلاء . ننقله نقلاً تتضح به معاناةُ الجادين . مع هؤلاء المعاندين : يقول لقومه : (ناديتكم في سكينة الليل . لأريكم جمال القمر . وهيبةَ الكواكب . فهبَبْتم من مضاجعكم مذعورين .. وقبضتم على سيوفكم ورماحكم صارخين : أين العدو . لنصرعه ؟ !

ناديتكم .. فلم تهبّوا من رقادكم .. بل ظللتم تغالبون مواكب الأحلام . قلت لكم : تعالوا نصعد إلى قمة الجبل .. لأريكم مَمَالِكَ العالم فأجبتم قائلين : فى أعماق هذا الوادى عاش آباؤنا وأجدادنا .. وفى ظلاله ماتوا .. وفى كهوفه قُبِروا . فكيف نتركه ونذهبُ إلى حيث لم يذهبوا ؟ !

﴿ ... إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الزخرف] .

قلت : هلموا نذهب إلي السهول .. لأريكم مناجم الذهب . وكنوز الأرض . فأجبتم قائلين : في السهول تتربص اللصوص . وقطاع الطرق .

قلت لكم : تعالوا نذهب إلى الساحل . حيث يعطى البحر خيراته .

فأجبتم قائلين : ضجيج اللُّجة . يخيف أرواحنا وهولُ الأعماق .. يميت أجسادنا .

ماذا تريدون أن أفعل يا بنى أمى ؟

أهدِلُ كالحمام لأُرضيكُم

أم أزمجر كالأسد لأرضي نفسى ؟
قد غنّيتُ لكم فلم ترقصوا
ونُحت أمامكم فلم تبكوا
فهل تريدون أن أترنّم وأَنُوح فى وقت واحد ؟
مستحيل :
نفوسكم تتلوى جوعًا وخُبز المعرفة أوفر من حجارة الأودية .
ولكنكم لا تأكلون
وقلوبكم تختلع عطشًا .
مناهل الحياة تجرى كالسواقى حول منازلكم فلماذا لا تشربون ؟
لقد كنت أحبكم يا بنى أمى ، وقد أضر بى
الحب ولم ينفعكم . .
كنت أشفقُ على ضَعْفكم يا بنى أمى
والشفقة تُكثر الضعفاء وتُنمى عدد المتوانين
ولا تُجدى الحياة شيئًا .
كنت أبكى على ذُلّكم وانكساركم وكانت
دموعى تجرى صافية كالبلور ، ولكنها لم
تغسل أدرانكم الكثيفة
بل أزالت الغشاوة عن عينى .
ماذا تريدون منى يا بنى أمى ؟
أتريدون أن أريكم أشباح وجوهكم
فى أحواض المياه الهادئة ؟
هلمُّوا وتأملوا
فقد جعل الخوف شعور رؤوسكم كالرّماد
وعركَ السَّهَرُ عيونكم فأصبحت كالحُفَر المظلمة
ولمست الجبانة خدودكم
فبانت كالخرق المتجعدة

وقبَّل الموتُ شفاهكم
فأمست صفراء كأوراق الخريف
إنما الحياة عَزْم يرافق الشبيبة
وجدٌّ يلاحِق الكهولة
وحكمة تتبع الشيخوخة
أما أنتم يا بنى أمى فقد وُلدتم شيوخًا
عاجزين . .
إنما الإنسانية نهر بلَّورِىٌّ يسير متدفقًا
مترنمًا ، حاملاً أسرار الجبال إلى أعماق البحر .
أما نفوسكم يا بنى أمى
فرمادُ تذروه الرياح على الثلوج .

(إن للبحر مدًا وجزرًا . . وللفجر نقصًا وكمالا ، وللزمن صيفًا وشتاء . أما الحق ، فلا يحول ولا يزول ولا يتغير فلماذا تحاولون تشويه وجه الحق) .

وهكذا يتغلغل هذا الأديب الأريب فى صميم الواقع . . في واقع الجاحدين ليكشف الستر عما وراء هذا الواقع من حقائق مرة .

وبمثل هذه المرارة . . مضروبةً فى عشر أمثالها . . نحسُّ بظلم هذه الشرذمة المتجهمة للحق الذى يطرق عليها الباب ، فإذا هى ﴿ **حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ (٥٠) فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ (٥١)** ﴾ [المدثر] .

لقد منحهم الله تعالى نعمة الوجود . . ثم منحوا الهداية مشفوعةً بوسائلها . . فكان أمرهم على ما يقول عز وجل : ﴿ **إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (٦)** ﴾ [العاديات] .

كَنودَ : نكَّار للجميل . . لا يؤدى حق الله تعالى عليه .

وإذن . . فعليه أن يتحمل وحده مسؤولية اختياره مع شرذمة الجاحدين من أمثاله وذلك قوله عز وجل : ﴿ **إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلاسِلَ وَأَغْلالاً وَسَعِيرًا (٤)** ﴾ [الإنسان] وعلى نفسها جنت براقش !

لقد ركبهم الغرور . . فانتبذهم الغرور مكانًا قصيًا . . فلم يستمعوا إلى نداء الحق . وهكذا الثمرة الكبيرة فى أعالى الشجرة : إنها لا تريد أن تسمع أنها كانت

يومًا بذْرةً صغيرة !

وهكذا الحشرات فى باطن الأرض . . . إنها بدلاً من أن تتعامل مع الماء الذى يروى الأرض . . فإنها تؤثر الهروب !!

ولقد كان المعهود فى الخطاب القرآنى أن يبدأ بالترغيب . . إعانة للمتمرد على الامتثال . ولكنه خالف الترتيب هنا . . فبدأ بالترهيب الرعيب . وقد تساءل المفسرون عن سر هذا التقديم فقالوا ما نلخصه فيما يلى :

١ ـ قدم ذكر العصاة لأن التشويش . . والانحراف أفصح . وأوضح .

٢ ـ وفى التقديم تعادلٌ بين البدء بالشكر . . حتى تستوى كِفتا الخوف والرجاء .

٣ ـ وحتى يكون الشكر هو القيمة التى نستفتح بها ونختم .

٤ ـ ثم إن الوعيد أتم فى الزجر . . لأنه أدلُّ على القدرة والقهر .

وذِكْر الإعداد ابتداء . . فيه من الرهبة ما فيه . . هذه الرهبة التى تتنامى فى وجدانهم من الآن . . وإلى أن يواجهوها فى عرصات القيامة فعلاً .

وفى ذلك ما فيه من إطالة زمان عذابهم : بالقوة . . وبالفعل معًا

ثم إن العذاب سلاسل . . للأقدام .

وقيود . للأيدى

ثم وفى النهاية . . نار تسعّر بهم .

عقبى الذين اتقوا وعقبى الكافرين :

يقول عز وجل : ﴿ **إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلاسِلَ وَأَغْلالاً وَسَعِيرًا (٤) إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا (٥) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا (٦)** ﴾ [الإنسان] .

لأن المعاند لا يؤمن بالبرهان ـ فليس البرهان من وسائله ـ ولأنه لا يعرف اللِّين فى تعامله مع الآخرين . . فإنه لا يلين لأنه كذلك . . فإن اللغة التى يفهمها هى : التخويف . والترهيب ويجىء قوله تعالى : ﴿ **إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلاسِلَ**

وَأَغْلالاً ...﴾ .

يجيء تهديدًا لهؤلاء المعاندين .. من جنس طبيعتهم المعاندة الجاحدة . فقد أعد الله لهم عذابًا .. سوف يكون فى استقبالهم هناك وهو : السلاسل .. والأغلال .. والنار .

وإذا كانوا يقولون :

تكلم بهدوء .. وأَمْسكْ بعصًا غليظـة .. فإن ذلك العذاب المعد هو تلك العصا الغليظة التى سوف تصفِّى الحساب معهم .. وبئس ما قدمت أنفسهم وفى العذاب هم خالدون .

ولاحظ ضمير العظمة فى مستهل الآية الكريمة : ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا﴾ .

لاحظه لتدرك على الفور : ضخامة هذا المصير الذى جَرُّوه على أنفسهم ... بما ستروا من الحق .. الذى تبدى لهم واضحًا .. لكنهم ستروه بالعناد .. وبالجحود .

وهكذا يعلمنا البيان القرآنى : يعـلمنا أن الأفكار مثل الماس . قد يكون الحصول عليها سهلاً ولكن صياغتها وبلاغتها أمرٌ ليس فى متناول كل أحد . وسبحان من هذا كلامه .

وهكذا يصرّف الحق تعالى آياتِه للناس .. لعلهـم يهتدون .. يصرّفها .. يُلَوِّنها ينوِّعها .. لـتصبح تلك الينابيع الـتى تختلف مذاقاتهـا . سبيلاً إلى اكتسـاب معرفة جديدة .. وخبرة جديدة .

والعيب فى الناس ... وليس في شرع الله .. فبينما يَجْحدُ نَاسٌ فيصيرُ أمرهم كما قيل :

ومن يك ذا فم مرٍّ مريض   يجد مرًّا به الماء الـزلالا

فإن هناك من كان مع الهدى على ميعاد .. فيـستقبل وارداته بعقل بصير وحسن نظيف .. وذلك الصنف هو ما أشير إليه بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ ﴾ وبينما الكافرون ينحطون فى دركات العذاب هبوطًا . فإن

الشاكرين بالطاعة يترقّوْن فى درجات النعيم صعودًا .

﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴾ إنهم الأبرار : الذين سمت هممهم عن المستحقرات . فانبجست فى أفئدتهم ينابيع الحكمة . . فقالوا فصلا . . . وحكموا عدلاً وقبل ذلك . . فهم الذين أدَّوْا حق الله تعالى عليهم . . ثم أَتَمُّوا معنى العبادة . . فكانت لديهم رغبة ملحة لا فى مجرد الإحسان إلى عياله سبحانه بل إن فى قلوبهم رغبةً ملحةً في توسعة دائرة الخير . . فاستجمعوا معنى العبادة شكلاً ومضمونًا . . وذلك بتعظيم الخالق . ثم الشفقة على المخلوق .

وهذه الرغبة في عمل الخير عميقة أصيلة . . . حتى إن البارَّ بعيدٌ عن بؤرة الشر لدرجة أنه : لا يؤذى الذر . . ولا يَرضى الشر ! وإذا كان هناك ملحدون يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا . . . فإن الأبرار يحبون أن يشيع الخير : فيهم وفى غيرهم .

وقد يحس إنسان بالسعادة اليوم . . . ولكنها سعادة عجلى : إنها سعادة حالّة مرتحلة فى نفس الوقت . . وكأنما يسرقها الإنسان من عمره المفعم بالآلام .

أما سعادة الأبرار فهى العطاء الدائم . . . والملائم .

﴿ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا (٥) ﴾ إنهم يشربون . . ودائمًا يشربون .

ثم إنهم لا يَعبّون الكاس عبًّا . لا يشربون الكأس كلها . وإنما يشربون رشفة رشفة . . . (من كأس) .

وهكذا الكبار المترفون فى الدنيا : لا يُفرغون الكأس فى بطونهم . . . وإنما يتلذذون . . . ومن متعتهم أنهم لا يشربون حتى الثمالة . . . وإنما يتركون فى الكأس بقايا . . . ترفًا . . واستغناء !

ومن صور نعيمهم : أن الكأس مزيج من العين الجارية والكافور الذى يكسر حدتها . . ثم هو كافور ليس جامدًا كما عَهِدوه فى الدنيا . . . ولكنه سائل يذوب فى تلك العين الفائرة .

ثم هو شراب أبيض له رائحة ذكية .

وإذن فالنعمة سابغة . لأنها تغطى حاجة الذوق وحاجة العين .. وحاجة الشم جميعًا .

ثم إنها عين جارية .. فهى مستمرة ... ورائقة ... خاليةٌ من أوشاب الأرض إنها إذن : الأُبّهة والرفاهية ... فى دار هى الحيوان : العطاء فيها غير مجذوذ .

ثم إنهم يفجرونها تفجيراً : تجرى بأمرهم إلى حيث يشاؤون إلى روضات الجنات أو إلى القاعات ..

وتلك إشارة إلى قيم الحرية .. والقوة .. والاستغناء .. جزاءَ ما قدموا فى حياتهم من عبودية لله .. وتذلل له تعالى . ثم هو الاستغناء بفضله عز وجل عما سواه .

لقد رضع الكافرون الهوى ... ولكن الأبرار فَطَمُوا أنفسهم فلم يرتعوا كما رتعوا ..

وقست قلوب المعاندين .. فكانت كالحجارة أو أشد قسوة ولكن الأبرار رشُّوا على قلوبهم من دموع الخشية .. والندم .. فكان جزاؤهم هذا النعيم المقيم .. وعليه مزيد من النعيم الروحى ما يفوق هذا النعيم المادى .. وهو ذلك الشرف السابغ بإضافتهم إلى مولاهم .. فهم وحدهم (عباد الله) صدقًا وعدلاً .

يقول صاحب الظلال : كان العرب يمزجون كؤوس الخمر بالكافور حينًا وبالزنجبيل حينًا .. زيادة فى التلذذ بها .

فهاهم أولاء يعلمون أن فى الجنة شرابًا طهوراً ممزوجًا بالكافور : على وفرٍ وسعة .

فأما مستوى هذا الشراب .. فمفهوم أنه أحلى من شراب الدنيا وأن لذة الشعور به تتضاعف وترقى .

من معالم الخطاب الإسلامى :

يقول عز وجل :

﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالاً وَسَعِيراً ﴿٤﴾ إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ

مِزَاجُهَا كَافُوراً ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً ﴿٦﴾﴾ [الإنسان] .

الأصل فى الدعوة أن يُجمع فيها بين الترغيب والترهيب .. ليظل المدعو على مزيج من الخوف والرجاء معًا .. وإلا .. فإن الترغيب وحده .. تدليل .. كما وأن الخوف وحده تدمير .

ولقد اجتمع الترغيب والترهيب فى هذه الآيات الكريمات فاجتمع بها شمل الإنسان .. بين الخوف والرجاء .. فراراً به من التدليل والتدمير معًا .

والأصل كذلك إذا اجتمعا .. أن يتقدم الترغيب .. لأنه تعجيل بالإحسان ..

والنفس مولعة بحب العاجل

وللتخفيف من حدة مرارة الوعيد .. فإن السياق هنا يبدأ بالسهل .. فالصعب ثم الأصعب هكذا . فالسلاسل تُشدُّ بها الأرجل .

وهى أسهل من الأغلال التى تشد بها الأيدى إلى الرقاب ليتم العذاب .

العذاب الحسى ... والعذاب النفسى من خلال هذا المشهد المُهين .

وفى النهاية : لا يلقون فقط فى النار ... وإنما تُسعَّر بهم النار .. ليكونوا حطبًا لها !

وهو درس فى أهمية التدرج فى العقاب ... وفى العذاب !

وإذا كان الجمع بين الأضداد وسيلةً من وسائل البيان من حيث إن الضدَّ يُظهر حسنه الضد .. فقد جمع الله تعالى بين الترهيب والترغيب .. لكنه عز وجل قدم الترهيب هنا .. من حيث كان الموقف يتطلب ذلك :

لأنه مشتمل على أمهات النعم وهى : الإيجاد ... والإمداد ... والإسعاد .

والتجهم لهذه النعم نذيرٌ بالخطر الذى يجىء الترهيب محذِّراً منه . لأنه اللغة الوحيدة التى يفهمها المعاندون ... الذين لا يخضعون للبرهان .. وإنما للتهديد وللوعيد .

إنها نعم ضخام .. ومن أجل ذلك فالمقام للشكران .. أما الكفران ... فلا كفران ! أو هكذا يجب أن يكون .

على أن تقديم الترهيب أحيانًا .. ليس تشفيًا .. ولا هو وضع للسيف فى موضع الندى .

وإنما هو فى جوهره : نعمة لِمَن أراد أن يذَّكر أو أراد شكورًا ، لأنه تنبيه للغافل الذاهل وتذكير له أنَّ بين يديه حفرةً يوشك أن يتردى فيها !

ومن أساليب الدعوة التلويح بالمغانم الدنيوية واللذات الحسية إطماعًا لأناس يقادون إلى الحق من أمزجتهم فإذا وافى المساء كان الحق أحب إليهم مما طلعت عليه الشمس .

ولاحظ فى الترهيب معنى الإيجاز ..

ولكنه فى الترغيب .. كان النَّفَسُ طويلاً ذلك بأن الترهيب قذيفة فى الدماغ يتكهرب بها الجو ، والنفوس وعندما تضع أوزارها .. تحتاج هذه النفوس إلى الإطناب : هَدْهدةً للنفس بعد فزعها .. وقد قالوا :

إن النفس تنكسر بالوعيد .. ومن ثم فإنها فى حاجة إلى الوعد تنشئ به مفصلاً فإن تفصيله عندئذ محبوب مرغوب .

هذا الترغيب الذى يحس معه المدعو أنه : فى حِمَى غنىّ .. لايكون معه فقر . عدل .. لايكون فى كنفه ظلم القوى .. الذى لا يوجَدُ معه ذل .

والنفس الملهمة الراشدة هى التى تدرك ذلك لتعود إلى الطريق المستقيم راضية مرضية .

وأكْرِمْ بنفس تستيقظ على دقات الحقيقة الراعدة الواعدة والتى تُهيب بالراقدين أن يَهِبُّوا .. فليست القوة فى ألا تسقط .. ولكن القوة كلَّ القوة .. أن تنهض كلما سقطت !!

وإذا كنا لا نستطيع أن نغير شيئًا من ماضينا الذى ولى فإنه ـ وبالتوبة النصوح ـ نستطيع أن نغير مستقبلنا . وإذا كانت العصافير تهرب عندما تسقط الشجرة .. فإن الإنسان الراشد يصمد للخطر .. الذى يصير في معمعاته مَعْدِنًا نفيسًا .. لا يذوب وإنما يخرج من النار واحدًا من الأبرار الذين صقلت التجارب أعوادهم فعز على

الزمان كَسْرُها .

وأولئكم هم الأبرار . . أما الفجار فهم على ما قيل : كل يدعى الحياة ويظهر تقواه . يخاف من العبد . ولا يخاف مولاه .

ولابد فى تربية النفوس من أن تُجزى كلُّ نفس بما كسبت تشجيعًا للمطيع . . ليزداد إيمانًا وردعًا للمنحرف . . حتى يفطم نفسه عن مشتهاها .

وقد يظن سمّار الليالى اليوم . . الغائبون عن الوجدان فى علب الليل . . قد يظنون أنهم على شيء . . وأنهم فى سهراتهم بين وهج المصباح ورنين الأقداح . . قد يظنون أنهم المتمتعون وحدهم . . بينما غيرهم من العباد فى بؤسهم يتخبطون .

ولكن الآيات الكريمة هنا ترد عليهم تصورهم هذا السقيم العقيم . . بيَّنه لهم : أنهم فعلاً يتمتعون . . بما يأكلون وبما يشربون ولكنهم يأكلون ويتمتعون كما تأكل الأنعام . والنار مثوى لهم !

وما قيمة نعيم ـ مهما طال مداه ـ إذا كان ذلك النعيم سوف يُسْلمهم فى النهاية إلى : ﴿ سَلاسِلَ وَأَغْلالاً وَسَعِيرًا ﴾ .

وبنفس القوة يقول : ما قيمة المعاناة فى الدنيا بطولها وعرضها . . إذا كانت الخاتمة هذا النعيم . . وهذا التكريم .

ولكن ماذا يفعل الداعية أحيانًا إذا خاطب من لايسمع . . ونصح من لا يقبل . . ثم غاب فى الأرض حيران فى بيداء الأوهام ؟ قل : الله . . ثم ذرهم فى ريبهم يترددون .

اللهم اجعلنى من حزبك . . فإن حزبك هم المفلحون . واجعلنى من جندك . . فإن جندك هم الغالبون . واجعلنى من أوليائك . . فإن أولياءك لا خوف عليهم ولاهم يحزنون .

من خصائص الأبرار :

يقول الله عز وجل :

﴿ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا (٧) ﴾ .

عندما يتأمل المستمع ما أعده الـله تعالى للأبرار فى الجنة . من الشراب على هذا النحو من الحفاوة والتكريم .

عندما يستوعب المستمع ذلك فإنه يتحرق شـوقًا إلى معرفة الأعمال التى استحقوا بها هذه الحفاوة . . وذلك التكريم . . .

وبمعنى آخر : تتطلع نفسه إلى تفصيل هذا النعيم . فلعله أن يسلك نفس الدرب ليصل إلى ذاك النعيم .

وهنا تجيء الآية الكريمة جوابًا عن هذا السـؤال . . مُفصّلة فى نفس الوقت دقائق تكوين هؤلاء الأبرار الأخيار .

فهم يوفون بالنذر : إنهم من الوفاء فى قمته العليا : فهو وفاء مستمر . . متجدد فهم ملتزمـون بعمل كل ما أوجبوه علـى أنفسهم . وبالتالى . . بكل مـا أوجبه الله تعالى عليـهم : لأن مَنْ وفَّى بما ألزم به نفسـه . فهو أحرى أن يلتزم بما فُـرض عليه ومعنى ذلك : أن التزامـهم بما عاهدوا عليه واسع . من حيث كـان وفاءً بحق الخالق وحق المخلوق . إلـى جانب كونـه متجددًا . . عـميقًـا ضاربا جذوره فـى النفس لا يتوقف عطاؤه أبدًا .

ومعنى ذلك أن تكـريمهم الآنف الذكر فى الآية الكريمة . لـم يكن من فراغ . . وإنما رشحتهم أعمالهم الكبار لذلك . . فضلاً من الله ونعمة ، وعَصَبُ هذه الأعمال كلها هو الالتزام . . والـطاعة لله عز وجل . . وإذا كان هناك غيـرهم ممن يتخذ من الوفاء تجارة . . فربطه بمصلحته الشخصية فإن هؤلاء الأبرار يبذلونه فطرة .

فإن عزموا . . توكلوا . . ولم يترددوا . . ولا ينقضوا غزلهم من بعد قوة أنكاثًا إنهم ينـطلقون فى وفـائهم من إحســاس حادٍّ بجدية الأمـر . وثِقَلِ التكالـيف وعِظَمَ الأمانة .

وكل ذلك نابع من إدراكهم لعظمة من يوفون بحقه عز وجل . . ثم الشفقةِ على الخلق فهم عيال الله سبحانه .

ومن صور هذا الالتزام قول أحدهم :

إلهى : لـو دعوتنى إلى الـنار لأجبتـك . . فكيف وأنت تدعـونى إلى المغـفرة

والجنة؟!

وإذا كان الإيفاء بالشيء هو : الإتيان به تامًا وافيًا .. فقد كان وفاء هؤلاء تامًا وافيًا . فلقد كانوا يوفون العمل بإتمامه .. وإتقانه .. لا يقصّرون . ومن وفاء العمل إلى وفاء النية المدلول عليه بقوله تعالى : ﴿ ... وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴾ .

ومعنى ذلك : أنهم مع هذه الأعمال الضخام العظام .. تراهم خائفين وجلين لديهم من حساسية الضمير ما يؤرّقهم ويقض مضاجعهم كما وصفهم ربهم سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ (٥٧) وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (٥٨) وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ (٥٩) وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (٦٠) ﴾ [المؤمنون] .

ولقد كان حسُّهم المرهَف ذاك لافتًا للنظر .. حتى إن عائشة رضي الله عنها قالت : سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون ؟ قال : « لا .. يا بنت الصديق ، .. ولكنهم الذين يصومون ويتصدقون .. وهم يخافون ألا يُقْبَلَ منهم أولئك الذين يسارعون فى الخيرات » (١) .

وإذا كان فى دنيا الناس اليوم من يقول : أنا آكل ... فأنا موجود .

ومن يقول: أنا أفكر .. فأنا موجود ..

إذا كان هناك من يقول ذلك :

فذلك قولهم بأفواههم !

وإنما الموجود حقًا وصدقًا : هم هؤلاء الذين يعملون ثم يخافون عذاب ربهم .. فعذاب ربهم غير مأمون .. ذلك بأن لهم غايةً عظمى يرجونها .

ومن خاف شيئًا سعى إليه بالعمل ..

عَمِل الواجب .. وعَمِل المستحب معًا .. إعلانًا عن رقة القلب . وكرم الطبع . وشرف النفس ..

(١) رواه الترمذى .

وتلك هى عناصر وجود الإنسان فى هذه الحياة .. ألا إن الخوف من الله عز وجل لهو العاصم من أمر الله . وقد قال علماؤنا فى توكيد ذلك ما فارق الخوف قلبًا إلا خرب !

إنه ليس ذلك الخوف السلبى القاعد بالإنسان عن الانطلاق والانتشار فى الأرض وإنما هو الخوف الإيجابى المحرك إلى العمل .. الباعث عليه .. ومن خاف أدلج حرّك ركابه من أول الليل ومن أدلج بلغ المنزل .

إن معرفتهم العميقة بالله عز وجل فتحت من بين أيديهم السبيل إلى خوف من أدركوا عظمته تعالى وذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[فاطر].

وما أكثر الذين يفكرون . ويتفلسفون .. ولكنهم لا يعملون بما يقولون .. وليس لهم من لطافة المزاج ما يستشعرون به جلال الله تعالى ... فمضواْ فى بيداء الحياة حيارى يتخبطون .

ولاحظ أنهم يخافون اليوم .. فكم يكون خوفهم مما يحدث فى هذا اليوم ؟

إنه يوم مخيف حقًا : فشَرُّه مستطير .. منتشر .. واسع يشمل هولُه كلَّ الناس حتى الأنبياء : « السماء تنشق . وتنفطر . وتصير كالُمهل . وتتناثر الكواكب . وتتكور الشمس والقمر . وتُبَدّل الأرض غيرَ الأرض . وتنسف الجبال . وتُسجَّر البحار » .

ومن هوله أن الشر لا ينتشر فقط .. وإنما هو يطلب الانتشار .. كالنار التى تقول يومئذ : « هل من مزيد » ؟

ويبقى الذين خافوا فى الدنيا .. يبقى هؤلاء فى أمنٍ من هذا الخطر : ﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ ﴾ .

من الأثرة إلى الإيثار

يقول الله عز وجل :

﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ ﴾ .

تمهيد :

يتم ترابط المسلمين وتآلفهم عبر طريقين : طريق الإيمان : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ [التوبة : ٧١] ، ثم طريق الإنفاق : الذى هو ثمرة هذا الإيمان وذلك قوله تعالى فى نفس الآية : ﴿ ... وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ... ﴾ .

وإطعام الطعام أحد رموز الإحسان إلى الإنسان : يقول الرازى : (ووجه ذلك : أن أشرف أنواع الإحسان هو : الإحسان بالطعام .

وذلك : لأنه قوام الأبدان بالطعام ولا حياة إلا به .

وقد يتوهم إمكان بقاء الحياة مع فقد ما سواه . فلما كان هو الإحسان .. لا جرم عبّر به عن جميع وجوه المنافع . والذى يُقوِّى ذلك : أنه يُعبَّر بالأكل عن جميع وجوه المنافع) (١) .

وقد كان إطعام الطعام هكذا مباشرة .. هو وسيلة التعبير عن هذه العاطفة النبيلة ووسيلة الإشباع لحاجات المحاويج . ثم تهذيب أرواح الباذلين . ورفعها إلى ذلك المستوى الكريم (٢) .

ويعني ذلك أن هؤلاء الأبرار لايعيشون فقط لذواتهم ... وإنما هم يَخْرجون من ذواتهم .. من جلودهم .. إلى المحيط الاجتماعى الرحيب .. ومن ثم كانوا أرسخ قدمًا على سكة السلامة الواصلة إلى مرضاة ربهم .

ويُنَبِّئك عن إخلاصهم وكرم معادنهم :

أولاً : إنهم لا يريحون أنفسهم بإرسال قيمة الطعام إلى الأيتام .. ليخرجوا بذلك من عهدة التكليف .

---

(١) الرازي .

(٢) الظلال .

وإنما يستضيفون المسكين واليتيم والأسير فى البيت ليجلسوا معهم حول مأدبة الطعام الذى يُشبع بطونهم .. وما يترتب على هذه الدعوة من إحساس الفقير بأنه واحد من أفراد الأسرة .

وثانيًا : إنهم يتحرَّون المحاويج .. وقد يكون المحتاج الأسير مشركًا ومع ذلك فإن له فى قلوبهم مساحةً من حيث كان مثلهم إنسانًا .. مؤكدين بذلك إنسانية الإسلام الذى يتعامل مع أعدائه بهذا الود .. وفى لحظة الانتصار إيمانًا منهم بأن هذا الأسير قد وقع .. فلا حول له ولا طول ..

وإذ يتحرى بعضنا اليوم استضافة الواجدين كنعمة تجزى بمثلها من بعد .. فإن هؤلاء الأبرار يتعاملون بقلوبهم مع المقهورين الذين لايجدون حيلة ولا يهتدون سبيلاً .

بل إنه من إيثارهم أنهم كانوا يطعمون ... ثم لا يرون لأنفسهم منة على من يطعمونهم ... وإنما المنة للفقراء الذين كانوا بقبول الدعوة أصحاب الفضل . وبذلك تم جميلهم كمالاً : يقول الفضيل : (لا يكتمل المعروف إلا بأن ترى المنة لأخيك عليك . إذا أخذ منك شيئًا .

لأنه لولا أخذُه منك ما حصل لك الثواب .

ولأنه خصك بالسؤال .. ورجا فيك الخير دون غيرك) .

(ومنهم الحسن البصرى الذى كان إذا أعطى سائلاً محرومًا : كان يرفع رأسه إلى السماء قائلاً : اللهم إن هذا يسألنا القُوت .. ونحن نسألك المغفرة فأنت بالمغفرة أجود منا بالعطية) .

إنهم الأبرار : الذين كان من برِّهم أنهم عرفوا الله فلم يشتغلوا بغيره . ثم أرادوه عز وجل .. فلم يريدوا غيره وما أكثر الذين يَهشّون فى وجهك عند حاجتك ثم إذا هذه البشاشة .. جعجعةٌ ولا ترى طحنًا :

فما كل من تهواه يهواك قلبه

ولا كل من صافيته لك قد صفا

ولقد ذكر بعض المفسرين أن الآية الكريمة نزلت فى عليّ رضي الله عنه . وفي آله ..

وكيف جاد فى ليلة واحدة بكل ما فى البيت من قوت ولقد سمعت ذات يوم من ينكر ذلك .. لأن فيه تقصيراً فى حق الأهل والولد .. والذين لم يُبق لهم الإيثار نقيراً أو قطميراً ؟

وقلت للمتعجب :

ليس هذا بغريب على أمير المؤمنين عليّ رضي الله عنه : فلقد ضحى بروحه ليلة الهجرة حين بات مكان الرسـول صلى الله عليه وسلم .. فعرّض كيانه كله للمـوت . ورجل هذا إيثاره : لا يكون غريبًا أن يجود بما عنده !

ولقد كانت قيمة الإخلاص متراحبـة ممتدة فى قلوبهم كامتداد الضوء : بلا حدود وذلك أنهم لم يكونوا يجودون بما يملكون .. بل بمـا يحبون .. وذلك بعض ما يشير إليه قوله تعالى : ﴿ ... **عَلَىٰ حُبِّهِ** ... ﴾ .

على حب الله تعالى .. وعلى حب الطعام معًا وتصور عمق الإيثار هنا :

أ ـ فالطعام عندهم قليل .

ب ـ ثم إنهم يشتهونه .

جـ ـ ومحتاجون إليه في نفس الوقت .

ومع قوة هذه الجـواذب ... إلا أنهم فى النهاية يـنتصرون عليهـا . إلى حد أن المسلم كان بعد انتصـار بدر كان يؤثر الأسير بلقمة الخبز .. فيـتعجب الأسير مما يرى وما يسمع إنها إذن قيـمة التضحية فى أسمى معانيهـا .. وهو الإحساس الجميل .. وإلى من ؟

إلى الأسير الـكافر .. والذى يجوز الإحسـان إليه في منطق الإسـلام حتى يرى الإمامُ فيه ما يرى .

ولقد كان هذا الجـود ظاهرة فى هذا الزمان المبارك . الجود الـذى تخلّق به رجال أيقنوا أنهم كـما قال ربهم : ﴿ **لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ** ﴾ [آل عمـران] فاستجابوا .. فأنفقوا مما يحبون .

وإذا كان من الناس اليوم من يبذر أمواله تبذيراً :

إرادة السمعة والمفاخرة .. أو طمعًا فى مال أو جاه أو سلطان . فإن هؤلاء الأبرار ... يبذلونه ثم لا يحرِّفون البذل عن مواضعه ..

وإذا كانت مصارف المال دالة على حِلّه أو حرمته .. فإن هؤلاء الأبرار بتحرى المحاويج .. كانوا شهودًا على أن أموالهم جاءتهم من الحلال .. لأنها فى النهاية راجعة إلى من يستحقها من النساء والرجال .

كرامة الإنسان فى الميزان :

يقول الله عز وجل :

﴿ **إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُورًا (٩) إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا (١٠)** ﴾ .

فى منطق الإسلام : لا يُهم حجم الصدقة أو نفاستها ... لكن المهم هو : الحفاظ على كرامة الآخذ ... حتى لا نملأ جيبه ثم نكسر قلبه ! وهو المعنى الذى حرص المؤمنون عليه حين يعطون ... ثم لا يمنُّون بل هم على وجل أن ترد صدقتهم .

وكانت عائشة رضي الله عنها تبعث بالصدقة إلى أهل البيت ثم تسأل رسولها الحامل للصدقة : ماذا قالوا ؟ فإذا ذكر دعاءهم لها ... بادرت فدعت لهم بمثل دعائهم .. حتى يبقى ثواب الصدقة لها خالصًا لها عند الله .

وربما قالوا ذلك القول بلسان الحال ... أو بلسان المقال .. فإن كان بلسان المقال فعلاً : فيعنى ذلك أنهم يرفقون بالآخذين .. لماذا ؟

حتى لا يكلفوهم ردّ هذا الجميل لأن إحسانهم مفعول ابتداء حب لله تعالى .. فلا معنى للمكافأة .. إيثاراً لما عند الله .. فهو أبقى وأنقى .

أو قالوا للفقراء ذلك بلسان الحال .. تفاديًا للمنَّة وفراراً من الإحراج الجارح قلوب الآخرين .

يقول المفسرون في هذا المعنى : (وإضمار القول كأنما هم يقولون ذلك .. الآن وإلا لو قلت: يقولون.. لكان ذلك إخباراً فقط) ثم يقول المعطون : ﴿ **إِنَّا نَخَافُ مِن**

رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ ﴾ .

ما هو الخوف :

يقولون : إن الخوف له أب هو : الخرافة ، وله ولد هو : العنف . وهكذا فى دنيا الناس . ولكنه فى حس المسلم له مذاق آخر .

فالله تعالى يقول : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر : ٢٨] .

فالخشية وهى أشد الخوف : بنت العلم . . . لا بنتُ الخرافة وأشد الناس خشية لله تعالى هم العلماء ، لأنهم أعرف البشر بخالقهم عز وجل . . ومن ثَم . . فهم أشدهم له خشية سبحانه ، وإذن . . فوليد الخشية هو السلام . . . لأن الخاشين لله تعالى من فرط خوفهم لا يعتدون ، فالخائفون من الله تعالى مصدر خير وبر . . لا مصدرُ تدمير وشر . وفى ظلهم يكون السلام والوئام فلا خصام . . ولا انقسام .

إنهم لا يخافون من البشر وإنما يخافون مقام رب البشر : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن:٤٦] جنةٌ للروح . . وجنة للجسد .

ذلك بأن الخوف لديهم هو :

أ ـ شعورهم بافتقارهم إلى الذات العلية التى يخافونها .

ب ـ ثم هم مُشفقون . . . وجلون من قهرها . . وهذا هو الخوف الإيجابى المانع من التجاسر على ظلم النفس . . والعدوان على الآخرين .

وحين يؤكدون خوفهم من ربهم . . . فإن ذلك . . لأنَّ ما قبل ذلك من عمق الإخلاص قد لا يصدقه أحد . . لأن النفس مجبولة على حب الثناء . . وهؤلاء تجاوزوا حب الثناء فمحَّضوا عطاءهم لله عز وجل . . فكان لابد من تأكيد وجهةِ الخير لديهم . . وأن الآخذين منهم ليسوا طرف فى القضية . . لأنهم إنما يتعاملون مع الله تعالى . . وليس فى نيتهم التزلف لبشر .

وإذا تاقت نفوسهم إلى شيء هنا . . فإنها تتوق فقط إلى مرضاة خالقهم وواهب هذا المال لهم سبحانه . . ومن أجل ذلك فهم لا يريدون من أحد جزاءً بالفعل . . ولا شكورًا . . بالقول . . والشكر لله تعالى أولاً وأخيرًا أن جعلهم فى موقع المعطين

لا فى موقع الآخذين .

ثم الشكر لهؤلاء الفقراء الذين مهدوا لهم بقبولهم الصدقة منهم .. مهدوا الطريق إلى جنات النعيم .

ولاحظ : أنهم يخافون من « ربهم » الذى رباهم .. وأنعم عليهم ومع هذا فالخوف منه شديد .. وهم من عقابه على حذر .

وماذا يخافون ؟ :

يخافون : ﴿ **يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا** ﴾ ، إنهم لا يريدون جزاء ... ولا يريدون شُكورًا .. ويكفيهم فقط النجاة من شدة هذا اليوم العابس القمطرير . وكأن الواحد من رواد هذه المدرسة يطلب دائمًا مغفرة ربه .. ثم لا يطلب الجنة .. لأنه في ظنه ليس لها أهلاً !!

ثم إنه يوم عبوس .. قمطرير : (يعتبس الكافر فيه .. حتى يسيل العرق من بين عينيه كمثل القطران) .

ثم هو يوم قمطرير .. طويل .. طويل .. أشد ما يكون من الأيام طولاً وبلاء . إنه يوم عابس .

مقطب الجبين .. لا أمل فيه أن تنفرج أساريره إنه ذلك الأسد الغضوب ، ترعب الناس أسارير وجهه .. فكيف بأنيابه ومخالبه وكيف بالبركان يتحفز للفوران من داخله ؟!

ثم إنهم يخافون نفس اليوم .. فكيف يكون خوفهم لما فيه من أهوال ثقال ؟

ومن أجل ذلك الخوف المزلزل .. يجودون بالمال .. شاكرين لمن أخذُ منهم أن كانوا لهم طوق النجاة .. حين رجعوا بحسن المآل .. ورجع الفقراء بالمال . فأى الفريقين خير مقامًا ؟

الذين عادوا بالثياب.. أم الذين فازوا بعظيم الثواب ؟ !!

جزاء الصابرين :

يقول الله عز وجل :

﴿ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا (١١) وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا (١٢) ... ﴾ [الإنسان] .

وهكذا يحقق الأبرار ما أمّلوا .. وذلك بما عملوا فماذا كانوا يؤمِّلون ؟

كانوا يتوخّون بالطاعة أمرين :

أولاً : رضاء الله تعالى .

ثانيًا : النجاة من أهوال القيامة .

وقد أعطاهم الحق تعالى هذين الغرضين .. وذلك قوله تعالى : ﴿ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴾ وذلك إجمال يحتاج إلى تفصيل .

لاحظ أن الوقاية الإلهية تأتى سريعة . فقد جاءت بالفاء المفيدة للتعقيب ، ثم يؤثر السياق أن يُعبّر عنها بالفعل الماضى « وقاهم » إشارة إلى أن الوقاية تمت فعلاً .. ومن الآن وما يترتب على ذلك من غرسٍ للأمل فى قلوب الأبرار .. وحتى لا ينام الرجاء فى العراء .

والسؤال الذى يفرض نفسه هنا : كيف يَحْدُث في هذا اليوم شر .. وكل شيء عندئذ بالقسطاس المستقيم فهو خير محض ؟ والجواب :

أن الشر فى ذاته خير .. حين يكون قِصاصًا أو حدًا .. يعتدل به الميزان .. لكنه بالنسبة للكافر المعاقب .. شر !!

ولقد كانت هذه الوقاية كافيةً هؤلاء الأبرار .. لأنها تعنى : أنهم لا يحزُنهم الفزع الأكبر .. وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذى كنتم توعدون .

ولكن الحق سبحانه وتعالى يتطلف بهم فيضاعفُ جزاءهم . وإذا كان المخلوق إذا شاب عبيده فى خدمته أعتقهم فأحرى بالخالق الوهاب وقد شاب الأبرار فى عبادته أن يُعتقهم .. وعلى العتق مزيد من التكريم .

نضرةُ فى الوجوه وبِشْرًا .. لما يرونه من النعيم المقيم .. ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ [القيامة] .

ثم سرورٌ فى القلب .. فكانت سعادتهم غامرة باطنة وظاهرة .. فى القلب والقالب جميعًا ..

وذلك بسبب ما أخفوا من الإخلاص .. وما أظهروا من صالح العمل .

ثم كانت الجنة مستقرًا ومقامًا .. رافلين فى حلل النعيم وبخاصة الحرير . والذى حرّموه على أنفسهم في الدنيا .. فكان لباسهم اليوم !

وذلك جزاء صبرهم .. ويؤثر التعبير القرآنى : ﴿ بِمَا صَبَرُوا ﴾ وما تعطيه « ما » من إبهام تذهب به النفس فى مجال الصبر كل مذهب .. لتدرك فى النهاية أنه صبر.. بلا حدود .

صبر له جذوره الضاربة فى أرض النفوس . وله كذلك فروعه كشجرة طيبة مثقلة بمختلف الثمرات ، لقد صبروا على طاعته .. فعملوا ، وعن عصيانه .. فلم يتمردوا .. وعلى قضائه فلم يتسخَّطوا .

إنه ذلك الصبر الذى صار فى كيانهم ملكة راسخة .. فهو مطبوع غير مصنوع.. فكان هذا الجزاءُ العظيم : جنة : تُجِنُّهم .. تدرأ عنهم أعين الفضوليين.. وتحميهم من سخرية الساخرين الذين كانوا من الذين آمنوا يضحكون . وهم فيها مقيمون .. وإلى أبد الآبدين .

متكئين : متمكنين من الجلوس .. فهم مطمئنون .. مرفّهون : على سرر مزينة بهجة للعيون .. قبل أن تكون راحة للجسوم . يأتيهم ما يريدون .. وبلا حركة .. فكل شيء هناك مرصود لخدمتهم .

﴿ لا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ ﴾ .

وإذا كانت الشمس تَعنى فى حسِّنا : شِدة الحر .. وإذا كان الزمهرير يعنى : شدة القُر .. فإن جو الجنة سَجْسَج : معتدل : لا حر . ولا قُر .

ثم هى تُضاء بذاتها .. إنها ضياء كاشف فلا تحتاج إلى شمس . ولا إلى قمر .

ظلها سابغ . . وهواؤها معتدل .

﴿ وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً ﴿١٤﴾ ﴾ .

من أكل قائمًا . . . لم يؤذه ، ومن أكل جالسًا . . . لم يؤذه ، ومن أكل مضطجعًا . . . لم يؤذه .

ولاحِظْ تنكير « نَضْرةً » . . وحريرًا . . وسرورًا . . وما فى التنكير من تفخيم وتعظيم .

وليس هذا فقط . . فهناك من صور النعيم ما لا عين رأت . ولا أذن سمعت . ولا خطر على قلب بشر : وهو ما أشارت إليه الآيات الكريمة :

﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ ﴾ .

وتأمل قدرة الله تعالى :

فالفضة : نقيةٌ . باقية . شريفة . . إلا أنها جَوهرٌ كثيف .

والقارورة : شفَّافة صافية . . سريعة الكسر .

ولكن آنية الجنة : فيها من الفضة : بقاؤها . ونقاؤها . وبياضها . . وشرف جوهرها .

ومن القارورة : صفاؤها . وشفافيتها . . وبريقها . . إن الله تعالى قادر على أن يَقْلبَ الرمل الكثيف : زجاجة صافية . وهو سبحانه قادر على أن يقلب فضة الجنة قارورة لطيفة .

قال ابن عباس رضي الله عنه : « لو ضُربت فضة الدنيا حتى صارت مثل جناح الذباب . لم يُرَ الماء من ورائها . وقوارير الجنة من فضة . . ويُرى ما فيها من ورائها» .

ومن تمام نعيمهم أنهم : ﴿ يُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلاً ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلاً ﴿١٨﴾ ﴾ .

وكأنما يسارع الحق تعالى فى رضاهم :

فالزنجبيل يلذع الحلق .. فتصعب إساغته من أجل ذلك يتلطف بهم ربهم سبحانه فجعله سلسبيلاً : سهل الانحدار .. لذيذًا ممتعًا .. هينًا .. يضاف إلى الرائحة الطيبة والطعم المقبول .. وفى ذلك فليتنافس المتنافسون .

إنها كما تقول الآية الكريمة : « سلاسلاً » بالنْصب فهى كثيرة .

« أو سلاسل » ممنوعة من الصرف .. فهى : قوية .. محكمةٌ .. ثابتة .. ضاغطة .. لا يملكون كسرها .. ولا التحلل من قبضتها .

ثم بعد ذلك : هى أغلال .. تجمع أيديهم إلى أعناقهم .. مع إحساس بالألم النفسى .. مضمومًا إليه ذلك الألم الجسمى .. حين تسعَّر بهم النار .. وبئس القرار.

إنسانية الإسلام مسموعة ومرئية

يقول الله عز وجل :

﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ۝٩ ﴾ [الإنسان] .

تمهيد :

إذا كان القرآن الكريم يفصل لنا الفضائل تفصيلاً . . فإن حياة الرسول ﷺ وصحابته تصورها لنا بألوانها وأبعادها . هؤلاء الذين نقلوا هذه الفضائل من عالم «القوة » إلى عالم الفعل .

هؤلاء الكرام الذين كان منهم علي رضي الله عنه . صاحب هذا الموقف العظيم والذى نحاول تأمله اليوم والذى يؤكده : أن الإنسان هو الكائن الوحيد الذى تتمثل فيه كل نواحى الوجود وهو « الحد الوسط » فى سلسلة الموجودات .

وكان بهذا جديراً أن يكون المركز الذى يدور حوله التفلسف . . ويتركز حوله النظر . . لينتقل العقل منه بيسر وسهولة . فى حركة تصاعدية ، إلى ما هو أرقى منه فى الوجود . وفى حركة تنازلية . . إلى ما هو دونه فيه . . وفى صحبة يقين جازم بأنه إذا كانت الفروق فى مملكة الحيوانات ضئيلة . . فإن الفروق بين البشر بسبب التربية والإيمان وطبيعة النفس بعيدة مترامية الأطراف وأن الأخلاق فى الإسلام ثابتة ، مطلقة ، ومع كل الناس . وليست ملونة كما هى فى بلاد لم تتذوق طعم الإيمان .

وإذ تبدو الأخلاق هناك نسيجًا مهلهلاً . فلا لحمة هناك ولا سدى فإن الخلق عندنا أصيل ، كيف وهو من ثمرات الإيمان ؟

كل أولئك مدلول عليه بهذا الموقف للإمام علي رضي الله عنه والذى أشارت إليه الآية الكريمة موضوع الحديث :

شرف العمل :

فى حياتنا من نسجهم عاطلون بالوراثة : رجل له نسب وحسب . . ومع ذلك

فهو مـرتبط بالحاكم . بـسبب وفى ظل هذا التـميز . قد يـؤثر البطالة راضيًـا برزقه المكفول ولكن عليًا ﷺ قائد عسكرى ، الفتى الخطار الذى خاض المعارك ظافرًا لم يهزم وهو فى نفس الوقت ابن عم رسول الله ﷺ ثم هو زوج أحد بناته إليه.

ومع ذلك فـقد آثر أن يعمل لـيأكل من عمـل يده خير طعـام . وأن يكون ذلك العمل : أن سقى النخيل على حفنات من شعـير . ولقد أنجز عمله الذى استمر الليل كله . . فلما أصبح . . وقبض الشعير ماذا حدث ؟ تلك هى القضية !!

كان أحفاد الرسول ﷺ يرتعشون كـالفراخ من شدة الجوع فى نفس الوقت كانت «فاطمة » فى محرابها : قد التصق بـطنها بظهرها . وغارت عيناها . . والرسول ﷺ يدرك ذلك كله . . لكنه لم يكن يملك لهم شيئًا .

ولم يكن لهذه المشكلة أو المعضلة من حل إلا أن يعمل الزوج . . وهذا هو الذى حدث بالفعل . . فماذا حدث ؟

لقد قامت الأسرة بطحن ثلث الشعير : فجعلوا منه خبزًا يأكلونه . . فلما نضج: جاء مسكين . . فآثروه بما صنعوا . . وهكذا فعلوا لما جاءهم يتيم وأسير . وهنا ندرك إلى أى حد كان الإسلام سمحًا فى معاملة « الأسارى » .

وروى أنه عليـه الصلاة والسلام كـان يبعث الأسارى مـن المشركين ليحـفظوا . وليقام بحقهم وذلك . لأنه يحب إطعامهم إلى أن يرى الإمام رأيه فيهم .

مغزى الموقف :

لاشك أن علـيًا ﷺ كان يعانى مع أسرته ـ فاقـة تأخذ بخناقه . . الأمر الذى فرض عليه تأجير نفسه نظير هذا الأجر الزهيد : ثلاث حفنات . . من شعير .

ولقد كان من حـقه أن يسأل الرسول ﷺ وهو الأمين علـى بيت المال على الأقل ليحمى فلذة كبده « فاطمة » ﷺ ـ مما تعانيه من أيام عجاف . . ولاسيما بعدما سهر طول الليل فعلاً . . ثم تصدق بما عنده ؟

إن الذى حدث هو : أن السـيدة « فاطمة » الزوجـة المطيعة . . الصبـورة تعجن ثلث الشعير ليصير خبزًا .

وفى اللحظة التى يخرج الخبز فيها من « التنور » ساخنًا تفوح منه رائحة يعرفها الجياع وحدهم ، وفى هذه اللحظة يطرق الباب مسكين .. فتدفع إليه الأسرة بالوجبة كلها .. بينما يسيل فيها لعاب الجائعين .. بل بينما يتضور الأطفال جوعًا ، ثم يتكرر الموقف .. وبهذا التكرار يصعب الاختيار .. ولكن الأسرة الكريمة تنجح فى الامتحان .

وإذا كانوا يقولون : إذا كان الرجل بحرًا . فلتكن المرأة « جسرًا » يُحدّ من اندفاعه .. فإن المرأة هنا لم تكن بحرًا .. ولا حتى جسرًا .. لكنها كانت محيطًا حين جادت بما صنعت يداها .

ألا وإنها الزوجة التى حرمت من زوجها طول الليل .. وتحملت وحدها فى غيابه عبء الأطفال الجائعين .. ثم استقبلته فى الصباح متعبًا مكدودًا بمزيد من الصبر والتحمل ، هذه الزوجة الصابرة : تنسى كل هذا .. عندما يدعوها من إيمانها داع إلي العطاء والجود بأغلى ما تملكه .. وأعز ما يحرص عليه ربات البيوت : الخبز .

ولكن الإحساس بأداء الواجب .. وصدق الإحساس بآلام الضعيف ينسيها كل ذلك .. ليكون البديل متعة تزرى بكل ما فى القصور !!

على نحو جعل من قيمة التكافل الاجتماعى واقعًا ملموسًا ضمن للأمة البقاء والخلود .

الجزاء الإلهى :

وكان لابد من التنويه الذى حدث فنزلت الآيات الكريمة من فوق سبع سموات تسجل الموقف متوجًا بالتشريف والتكريم .. والذى صارا واحدًا من ملامح البيت المسلم كما يجب أن يكون .

هذه الملامح التى تشكل دستور البيت المسلم هكذا :

١ ـ إن أهل البيت هنا لا يطعمون طعامًا فاضلاً عن حاجتهم .. لكنهم يجودون بما هم أحوج ما يكونون إليه .

٢ ـ ثم إنهم يجعلون منه هدية لا إلى وزير أو أمير .. ممن يقدرون على رد

الجميل مضاعفًا . ولكنهم يقدمونه راضين إلى من لا ترجى من ورائه مصلحة شخصية .

٣ ـ ومن وراء ذلك كله إخلاص يعلن عن نفسه بما حكاه القرآن الكريم هنا : ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُورًا ۝ ٩ ﴾ .

٤ ـ ومع ما يشير به الموقف من تضحية مشكورة مأجورة فإنهم مع هذا يخافون يومًا كان شره مستطيرًا .

وتجيئهم البشرى : تكريمًا لهم . . وتحريضًا لغيرهم : ﴿ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ۝ ١١ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ۝ ١٢ ﴾ [الإنسان] .

إن الحق سبحانه وتعالى يرد إلى هذا القلب الخائف الوجل . . يرد إليه أمته وقراره في صحبة وعد إلهي بمستقبل واعد كريم ينال فيه الكريم ما يتمنى بل فوق ما يتمنى !!

أما بعد : فإننا بهذا الموقف نفتح نوافذ التذكار لماضينا المجيد : لتتذكر الأمة عمرًا عاشته . . فإذا هو حاضر يطالبها بضرورة تجديده . . ليعود إليها مجدها فرارًا من هذا الواقع الذى نسى ماضيه . . فكان ما كان .

وإذا قال الشاعر الماجن :

وما تعبٌ من اللذات إلا

أحاديث الكرام على المدام !

فإن تاريخنا شاهد بنقيض ذلك ، وإن القرآن يرد هذا الزعم بقوله عز وجل : ﴿ الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ ۝ ٦٧ ﴾ [الزخرف] .

إنه لا كرم هناك فى مجالس المدام ، وإنما هناك الانتحار البطيء !

وهو ما تنبه إليه الشاعر العربى قيس بن عاصم المنقرى الذى قال :

وجدتُ الخمر جامحة وفيها

خصال : تفضح الرجل الكريما

فلا والله أشـربها حيـــــاتى

ولا أدعو لها أبدًا نديمـــــــا

فإن الخمر تفضح شـــاربيهـــا

وتجْشَمُهم بها أمرًا عظيمـــــا

وتبقى أحاديث الكرام .. أجل من لغو المدام ؟!

العمل القليل والعطاء الجزيل :

يقول عز وجل :

﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ ﴾ [الإنسان] .

تنحصر لذات الدنيا كلها فيما يلى :

أ ـ قضاء الشهوة .

ب ـ إمضاء الغضب .

جـ ـ واللذة الخيالية التى يعبر عنها : بحب المال الجم . والجاه العريض .

لكن ذلك كله حقير .. لأن الحيوانات الخسيسة .. قد تشارك الإنسان فى واحدة منها .

أما فى الجنة .. فعلى هذا النعيم المادى : نعم أكبر وأعظم فكل واحد كأنه ملك متوج فى مملكته تلك الشاسعة ، يملك .. ويحكم .

قال رجـل لرسول اللـه ﷺ : أرأيت إن دخلتُ الجنة .. أتـرى عيناى مـا ترى عيناك فقـال : « نعم » . فبكى الرجل من فرط سـروره .. لا .. بل مات من شدة إحساسه بهذا الفوز العظيم .. وكأنما تعجّله فعجّله الله تعالى له بموته !

ومن مشاهد هذه المملكة أنه : ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴾ لقد خُلقوا من الجنة .. فهم يحملون خصائص أمهم .

فهم فى غاية الحسن والجمال . مخـلّدون ، باقون ، لا يكبرون .. ولا يتغيرون

ولا يتحمل أهل الجنة تبعات معيشتهم .. ومع ذلك فهم يتنافسون فى خدمتهم مواظبين عليها .

ولا يعدل عظمة النعيم إلا جمال هؤلاء الطائفين من الخدم : ﴿ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ ﴾ فى صفاتهم ونورهم . يقول المفسرون : (وإنما شبههم سبحانه وتعالى باللؤلؤ المنثور : لأنه سبحانه أراد تشبيههم باللؤلؤ الذى لم يُثقب بعد لأنه إذا ثقب نقصت مائيته وصفاؤه واللؤلؤ الذى لم يثقب لا يكون إلا منثوراً) .

وهم مع ذلك : كثيرون .. منتشرون .. حيثما يتوجه المؤمن فثم خادمٌ طوعَ إشارته . خادم هو مع زملائه كهذا اللؤلؤ المنثور : الذى يقع شعاع بعضه على بعض فيبدوا المشهد مثيراً بهيجًا .

وهؤلاء الولدان هم : أبناء الكفار الذين ماتوا على الفطرة سخرهم الله تعالى لخدمة المؤمنين وغلمانهم فى جنة النعيم .. ينبثون فى المجالس ذاهبين آيبين مطيعين .

وتفتح عينيك لتكحلها بهذا النعيم المقيم . فلا ترى إلا مملكة عريضة .. أنت فيها السيد المطاع : أينما التفت وجدت ما هو أعظم وأجمل .. فى لذة موصولة لا مقطوعة ولا ممنوعة . بل يجد المؤمن لآخر لقمة من اللذة ما يجده عند اللقمة الأولى « ذكره المنذرى فى الترغيب ٤ / ٥٢٦ » .

ومن صور هذا النعيم أن هؤلاء الولدان يلبسون من غليظ الحرير سندسًا ومن رقيقه إستبرقًا .

﴿ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ ﴾ والفرق هائل بين فضة الدنيا .. وفضة الآخرة .

﴿ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ ﴾ بريئًا من دنس الدنيا : (لم يُعصر فتمسّه الأيدى الوضرة . وتدوسه الأقدام الدنسة . ولم يجعل فى الدنان والأباريق التى لم يُعِن بتنظيفها . ثم هو لايؤول إلى النجاسة .. لأن عَرَقهم رشحٌ كرشح المسك) .

يقول صاحب تيسير الرحمن : (وهكذا ترى الواحد منهم : عنده من المساكن . والغرف المزينة المزخرفة . ما لا يدركه الوصف ولديه من البساتين الزاهرة . والثمار الدانية . والفواكه اللذيذة . والأنهار الجارية . والطيور المشجية . ما يأخذ بالقلوب . ويُفرح النفوس . وعنده من الزوجات اللاتى فى غاية الحسن والإحسان . الجامعات

لجمال الظاهر والباطن . الخيْراتِ الحسان ، ما يملأ القلوب لذة وسرورًا. ولذة وحُبُورًا وحوله من الولدان المخلدين . والخَدم المؤبَّدين . ما بـه تحصل الراحة والطمأنينة وتتم لذة العيش وتكمُل الغبطة) .

وعندما يأخذ هذا النعيم على النفس أقطارهـا . . فإنها تتعلق به . . تعلقًا شديدًا وقد يهجس فى الخـيال أن هذا النعيم إلى زوال . . وعندئذ يتلطف الـوهاب سبحانه بهم فيخاطبهم : ﴿ **إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا** ﴿٢٢﴾ ﴾ [الإنسان] لا تخافوا من زوال هذا النعيم .

لستم ضيوفًـا . . سترحلون . . أو يرحل عنكم هذا النعـيم . . إن عملكم كان مقبولاً . . مشـكورًا . . وجزاؤكم فوق أنه أضعاف مضاعـفة . . فهو دائم أبدى . . سرمدى . . فاطمئنوا . . لقد خفتم فى الدنيا . . فلا أجمع عليكم مخافتين !!

وهكذا يأتيهم هذا الخطاب الحبيب . . ليكون نعمة أكبر من كل النعم (إنه يعدل المناعم كلها . . ويمنحها قيمة أخرى . فوق قيمتها ، وينتهى العرض المفصّل والهتاف الموحى للقلوب . الهـتاف إلى ذلك النعيم الطيب . والفـرار من السلاسل والأغلال والسعـير . وهمـا طـريقان : طـريق مؤد إلى الجنة هذه . . وطـريق مؤد إلى السعير) [١].

وفى ذلك فليتنافس المتنافسون . . . وليعلم المؤمنون أن الدنيا سجنهم وأن الآخرة جنتـهم وما أقـل الثمن ! . . ومـا أغلى السـلعة ! : إنـها الجنة . . جـنةٌ عرضـها السماوات والأرض أعدت للمتقين وفى ذلك فليتنافس المتنافسون .

الصبر الجميل زاد الدعاة :

يقول عز وجل :

﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلاً** ﴿٢٣﴾ **فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا** ﴿٢٤﴾ ﴾ .

فى بواكير الدعوة الأولى . . ما أكثر مـا لاقى ﷺ من عنت قومه : فقد شوشوا

(١) الظلال .

عليه وعلى رسالته زاعمين أن ما جاء به سحر أو شعر أو كهانة .

ولما باءت حملة التشويش هذه بالفشل . حاولوا الضغط عليه بمجموعة من المغريات . . فلعل وعسى :

كان عتبة بن ربيعة يقول للرسول ﷺ : ارجع عن هذا الأمر . . حتى أزوجك وَلَدِى . . فإنى من أجمل قريش ولداً .

وكان الوليد يقول له : أنا أعطيك من المال ما ترضى فإنى من أكثرهم مالاً .

وكان لابد من رد هذه الهجرة الظالمة المغرية ، فنزلت الآية الأولى لتقول له : ليس صحيحًا أن ما جئتهم به سحر أو شعر أو كهانة

إنما هو القرآن

القرآن : الجامع

الجامع لكل المبادئ العليا . .

ثم هو المستعلى على كل ما سواه .

ففيه الغناء وهو رمز الاستعلاء

فدعهم يهرفون بما لا يعرفون . . فنحن الذين نزلنا عليك هذا القرآن . . والذى صرت به الرائد الذى لا يكذب أهله وهم فى قرارة أنفسهم يعترفون بذلك ولكنه العناد ، عنادُ المريض الرافض للطبيب وللدواء ، الدواء الذى نزَّله الله عليك تنزيلاً ، تنزيلاً (أى على التدريج بالحكمة ، جوابًا للسائل ورفقًا بالعباد ، فَدَرَجَهم فى وظائف الدين تدريجًا موافقًا للحكمة . ولم يدع لهم شبهة إلا أجاب عنها ، وعلمهم جميع الأحكام التى فيها رضانا ـ وآتاهم من المواعظ والآداب والمعارف بما ملأ الخافقين) (١) .

(الجامع لكل هدى . والحافظ من الزيغ . كما يَحْفَظ الطب للصحيح صحة المزاج . الشافى لما عساه يحصل من الأدواء . بما يهدى إليه من العلم والعمل) (٢) .

---

(١) البقاعي .

(٢) نفس المرجع والموضع .

وإذْ يتبين لك أن ما يمكرون إلى زوال .. وأن العاقبة لك .. ما دمت مستبركًا بهذا الهدى : « فاصبر »

اصبر لكل ما حكم به ربك عليك

اصبر لحكم ربك «القَدَرِىِّ » فلا تتسخطه

واصبر لحكم ربك الشرعى .. فاثبت عليه ..

لايمنعك من الالتزام مانع

وإذا تأخر نصرك .. مع أنك على الحق .

وإذا غر هؤلاء ما يملكون من متاع الدنيا وزينتها . فلا تضجر مما تلاقى من عناء فإن النصر آت لا ريب فيه . يُعينك على هذا الصبر ما يلى :

أولاً : قوله تعالى : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴾ [إبراهيم: ٢١] الجزع أشد من المِصيبة ذاتها .. لأنه يجعلها مصيبتين .

ثانيًا : أنك لو جَزِعت .قَرَّتْ أعين حسادك . وأسأت إلى أصدقائك .

فأنت تظلم نفسك .. وتظلم غيرك .. ويعينك عليه .

ثالثًا : أن الله تعالى معك .. عليهم .

رابعًا : إن قومك ظالمون .. وهم بظلمهم ضعفاء : قال واحد من الطغاة : والله ما هبْت شيئًا قط هيبتى لرجل ظلمته ... وأنا أعلم أنه لا ناصر له إلا الله تعالى .. يقول : « حسبى الله بينى وبينك » .

وأنعِمْ برجل كان الله معه .. ضد عدوه .

قال قيصر يومًا : أنا الحاكم المستبد .. ولكننى أخاف من العصافير .. ومن الرعود .. التي تزمجر . وتَسكُتُ بلا إذْنٍ منى .

وما أكمل المظلوم . حين يصبر . ولا يخاف مَنْ ظلمه اتكالاً على الله تعالى .

وإذ ينفد صبر الفارغين تحت ضغط الأحداث قلقًا وتمزقًا فليكن صبرك دائمًا .. وجميلاً . مستعليًا به فوق ما يمكرون .. وما يريدون .

وإنها لرسالة موجهة إلى كل مظلوم .. ليُحسِنَ التعامل مع عدوه المغرور . حتى يكسر إرادة الشرِّ فيه . هذا المعنى الذى عبر عنه الشاعر فقال :

فيم انتظاركمو ... والحق حقكمو
يُعَدى عليه ... ليعطى للملاعين

لا تطلبوه احتكامًا فى مجامعهم
بَلِ استْردوه قسرًا فى الميادين

ألا إنه التحرر من سيطرة الطغاة .. ليظل المؤمن دائمًا مشدود القامة .. مطمئن الفؤاد ..

والسؤال الآن : لقد كان ﷺ طليعة الصابرين .. والرافضين الخضوع للمتآمرين.. فكيف يؤمر بالصبر .. ويُنهى عن طاعة المارقين .

وقد أجاب المفسرون بما يلى : (الناس محتاجون إلى مواصلة التنبيه والإرشاد . لأجل ما تَركَّب فيهم من الشهوات الداعية إلى الفساد .

وأن أحدًا لو استغنى عن توفيق الله تعالى وإمداده .. وإرشاده .. لكان أحقَّ الناس به هو : الرسولُ المعصوم ومتى ظهر ذلك .. عَرَف كل مسلم أنه فى حاجة إلى عون من الله تعالى .. حتى يستمر ماضيًا على سواء الصراط .. مفتقرًا إلى الوقاية من : الشبهات والشهوات) .

إذا لم يكن عون من الله للفتى ... فأول ما يجنى عليه اجتهاده

والذكر معوان على أحداث الزمان :

يقول الله عز وجل : ﴿ **فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا (٢٤) وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا** ﴾ [الإنسان: ٢٥]

المعركة بين الحق والباطل مستمرة .. تواكب الحياة .. حتى تنتهى الحياة . ألا وإن للحق جنوده .. وللباطل حشوده ، وفى محاولة الباطل ضرب الحق فى مقتل فإنه يَشُن غاراته بالذات على رواد الحق .. على رموزه .. المؤثَّرين فى مجرى الحياة فإذا سقطت الرموز .. سقطت معها راية الحق .. لينفرد الباطل بالضحية التى يود أن

لو استسلمت له . . . دون مقاومة .

ولكن الحق سبحانه وتعالى يأمر نبيه بالصبر . . تحدِيا للباطل المغرور . .

ثم ينهاه عن طاعة رموز الكفر : من كل آثم ، هجامٍ على الحق . . ركَّاب للخطايا . . أو كفور مبالغ فى الجحود . . واصلٍ فى الجحود إلى منتهاه .

﴿ **لا تطع منهم آثما أو كفورا** ﴾ لا تطع . . وقد تسمع منهم . . لترد عليهم افتراءهم . . ولكن لا ترتب على السماع طاعة . . فإنما الطاعة لمن خلَقكَ سبحانه وتعالى . .

أما المخلوق . . أما الآثم أو الكفور . . فلا سمعَ له ولا طاعة . . وإن تردَّى لك ثياب الحمل الوديع .

مع ملاحظة أنه باستثناء الإثم والكفر . . فقد تكون لدى الآثم الكفور مصلحة لك . . وإذن فلا بأس من الإفادة منها . . . لا بأس على الصقر أن يتلطَّف ليلتقط الحبة . . ثم يطير محلِّقًا فى الأجواء العالية حتى لا يقع فى شبكة الصياد !!

ويعنى ذلك من دروس الدعوة :

أولاً : لا أقطع كل صلتى اليوم بكل آثم أو كفور. فليبق هناك من جسور التفاهم بينى وبينه. . فلعله أن يعود إلى الحق يومًا . . فيعود إليه بعودته . . خلق كثير ؛ لِتَبْقَ هناك مساحات بعيدة عن الإثم والكفر ، مادام ذلك فى مصلحة الدعوة والدعاة .

أما محاولة نسف كل الجسور بيننا وبين خصومنا . . فإن ذلك يقلل من صور التفاهم أو يدمرها وبالتالى يظل الدعاة يدورون حول أنفسهم فلا يضيفون إلى الدعاة جديداً ، وقد ينتهزها الصائدون فى الماء العكر فرصة للتشويش على الدعوة باستعداء الماكرين عليها . . تلك الدعوة التى لا تمتد لها جذور . . ولا يتسع لها ظل . . ولا تتشعب منها أغصان . . إلا فى الجو الهادئ . . بلا انفعال أو جدال .

والملاَّح المتميز هو الذى لا تضطرب يده وهو يقبض على المجداف . . متجاوزاً بالزورق الصغير تلك العواصف الهوج ! وكما يقول البصراء :

إن الدهر يومان :

يوم لك ويوم عليك .

فإذا كان لك . فلا تَبْطر .

وإذا كان عليك . فاصبر .

وعليك أن تستصحب فى رحلتك زاد المسير : ذكرَ الله تعالى : واذكر اسم ربك بكرة وأصيلاً :

فى الليل إذا سجى . . والنهار إذا تجلى . .

فى الليل إذا عسعس . . والصبح إذا تنفس .

استمرَّ ذاكرًا شاكرًا ربك فى كل وقت . مستشعرًا صفاتِ جلاله وصفاتِ جماله عز وجل .

يقول صاحب الظلال :

(هذا هو الزاد ، اذكر ربك فى الصباح والمساء . واسجد له بالليل وسبحه طويلاً، إنه الاتصال بالمصدر الذى نزَّل عليك القرآن . وكلف بالدعوة . هو ينبوع القوة . ومصدر الزاد والمدد .

الاتصال به ذكرًا وعبادة . .ودعاء وتسبيحًا . . ليلاً طويلاً فالطريق طويل . والعبء ثقيل ، ولابد من الزاد الكثير . والمدد الكبير .

وهو هناك : حيث يلتقى العبد بربه فى خلوة . وفى نجاء وفى تطلع . وفي أنس تفيض منه الراحة على التعب والضنى.

وتفيض منه القوة علي الضعف والقلة . وحيث تنفض الروح عنها صغائر المشاعر . والشواغل وترى عظمة التكليف . وضخامة الأمانة . فتستصغر ما لاقت وما ستلاقى من أشواك الطريق) ا . هـ .

ويعنى ذلك : أن يُخرجَ البشر جميعًا من حسابه . . ليكون العبد لسيده وحده :

إنى بلوت الناس أطلب منهمو

أخا ثقة . . . عند اعتراض الشدائد

فلم أر فيما ساءنى غير شامتٍ ولم أر فيما سرنى غير حاسد

من سنن الله تعالى العامة :

ومعنى استهزاء الله بهم أنه سبحانه يمدّهم .

﴿ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ ﴾ [البقرة:١٠٧] .

﴿ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ [البقرة:١٠٨] .

﴿ وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ ... ﴾ [البقرة: ١١٠].

﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ... ﴾ [البقرة:١١٢] .

﴿ لِكُلٍّ وِجْهَةٌ ﴾ [البقرة:١٤٨] .

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ﴾ [البقرة:١٤٣] .

﴿ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ [البقرة:١٥٧] .

﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾ .[البقرة:١٧٩]

﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ [البقرة:١٨٥] .

وإذن فلو تعسر على شيء فيجب عليَّ أن أراجع نفسي لأن الدين كله يسر

﴿ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ ﴾ [البقرة:١٨٩] .

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٠] .

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [البقرة:١٩٥] .

﴿ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى ﴾ [البقرة:١٩٧] .

﴿ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴾ [البقرة:٢٠٥] .

﴿ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ [البقرة:٢١٣] .

وقد يكون الضمير فى « يشاء » للعبد .. وإذن فلا جبر .

ولاحظ : أنه لو دل كلام الله تعالى على معنى واحد من لفظ مع احتماله معانى أخرى .. لكان ذلك عيبًا .. لأن المعنى لم يفهم .. وإذن فلنرد كل معنى .. ما دام لم يمنع من ذلك مانع .

﴿ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ ﴾ [البقرة: ١٩١] لأنك لو قتلته دخل الجنة !

﴿ أَلا إِنَّ نَصرَ اللَّه قَرِيبٌ ﴾ [البقرة: ٢١٤].

﴿ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ [البقرة:١١٦] .

﴿ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِه ... ﴾ [البقرة:٢١٧] .

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ ﴾ [البقرة:٢١٩] .

كل الصفات سيئة فى الخمر والميسر : الكحول خارج الجسم مفيد ، ولكن فى الجسم مضر ، يتليف الكبد ، ويفسد القلب ، والأعصاب ، وتتقلص المعدة .

﴿ وَلأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ ﴾ [البقرة:٢٢١] .

﴿ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ ﴾ [البقرة: ٢٢٢] .

﴿ هُوَ أَذًى ﴾ [البقرة: ٢٢٢] .

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٢٢] .

﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ ﴾ [البقرة:٢٢٣] وتحديد النسل : تنفيه هذه الآية .

﴿ لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٢٥] .

﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ [البقرة:٢٢٨] .

﴿ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [البقرة:٢٢٩] .

﴿ لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾ [البقرة: ٢٢٣] .

﴿ لا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا ﴾ [البقرة: ٢٣٣] .

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٣٥] .

﴿ وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾ [البقرة:٢٣٧] .

﴿ وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ [البقرة:٢٤١] .

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ ﴾ [البقرة:٢٤٣] .

﴿ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [البقرة:٢٥٤] .

﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ... ﴾ [البقرة:٢٥٦] .

﴿ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ ﴾ [البقرة: ٢٥٥] .

﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [البقرة: ٢٥٧] .

﴿ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٦٤] .

﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى ﴾ [البقرة: ٢٦٣] .

﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ ﴾ [البقرة: ٢٦٨] .

* * *

القضايا العامة أو السنن الإلهية من خلال الأربعة أجزاء الأولى فى القرآن الكريم

﴿ أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [البقرة: ٥] .

﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [البقرة: ١٥] وهذا معنى استهزاء الله سبحانه بهم .

﴿ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ (٢٦) ﴾ (القضية العامة) .

﴿ فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) ﴾ .

﴿ مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [البقرة: ١٠٥] أي : من كان على غير ملتنا لا يحب لنا الخير .

﴿ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (١٠٧) ﴾ .

﴿ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٠٨) ﴾ .

﴿ وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ ﴾ [البقرة: ١١٠] .

﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ ﴾[البقرة: ١١٢] .

﴿ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة: ١٢٤] .

﴿ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ ﴾ [البقرة: ١٢٦] .

﴿ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا ﴾ [البقرة: ١٣٧] الآية شرطية غير إنسانية .

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ﴾ [البقرة: ١٤٣] .

﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ﴾ [البقرة: ١٤٨] (تنفى الخبر) .

﴿ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ [البقرة: ١٥٧] .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [البقرة: ١٦١] .

﴿ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ [البقرة: ١٦١] .

وماذا على العبد . . . إذا كانت هذه أخلاق البشر . . عليه أن يرفض أن يشكو الخالق سبحانه . . إلى المخلوق . فليس فى الناس من يُبْكَى عليه .

لا أشتكى زمنى هذا . . فأظلمه   وإنما أشتكى من أهل ذا الزمن
همو الذئاب التى تحت الثياب . . فلا   تكن إلى أحدٍ منهم بمؤتمن

إن الذكر هو الحصن الآمن . . الذى يحميك من هجمة اللصوص . وبدوامه . . يتركُ بصماته . . لتكون عونًا لك فى كل أمورك . . إنه يلهمك .

فى المصيبة . . الصبر .

وفى النعمة . . الشكر .

وفى الصحة . . الوفاء .

وفى الجوار . . الحب

وفى الجهاد . . شرف الغاية .

وفى النصر . . التواضع .

وفى السخاء . . عدم المن .

وفى العلم . . عدم المراء .

ثم هو فى المصنع : إتقان وإحسان .

وفى المتجر : صدق وأمانة .

وفى المزرعة : صبر ومثابرة .

وفى المكتب : خشيةٌ ويقظة ضمير .

كل أولئك أخلاق تقوم فى نفسك مقام الحارس الذى لا يسقط سلاحه أبدًا .

لله تعالى قوانين اجتماعية مثل :

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ... ﴾ [الروم : ٥٤] .

﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ ... ﴾ [يس : ٦٨] .

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ... ﴾ [الإسراء : ٨٥] .

﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ ... ﴾ [النساء : ٧٨] .

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ... ﴾ [العنكبوت : ٥٧] .

﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ... ﴾ [المؤمنون : ١٨] .

﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ... ﴾ [الحج : ٥] .

﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ ... ﴾ [يس : ٣٣ ـ ٣٥] .

﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ... ﴾ [يونس : ١٢] .

﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا ... ﴾ [الزخرف : ٣٢] .

وهذه القوانين كقوانين المغناطيس والكهرباء فى عالم المادة .. وهى حقائق فوق الزمان والمكان .. مرسلة فى قوة وإصرار عبر المستقبل . ثم هى قوانين إلهية ، شرعها الله عز وجل .. لأن الناس لا يعرفونها .. وحتى لو عرفوها .. ما يحسنون تطبيقها .

فهل من البشر من يجد فى نفسه جرأة ليحكم بها حكمًا عامًا ينسحب على الحياة كلها ؟ لا أحد .. وإنما هو الواحد الأحد .

من السنن العامة فى السنة المطهرة

« من أحب أن يبسط له فى رزقه . وأن ينسأ له فى أجله فليصل رحمه » (البخارى ـ كتاب الأدب) .

« من لا يرحم لا يرحم » السيوطى فى الجامع الصغير .

« اليمين الكاذبة تدع الديار بلا قع » .

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال ﷺ : « ما ظهر الغلول فى قوم إلا ألقى الله تعالى فى قلوبهم الرعب .. ولا فشا الزنى فى قوم إلا كثر فيهم الموت .. ولا حكم قوم بغير حق إلا فشا فيها الدم .. ولا ختر ـ غدر ـ قوم بالعهد إلا سلط الله تعالى عليهم العدو » أخرجه مالك .

روى ابن كثير ـ نقلاً عن البخارى : « ما من مولود يولد إلا على الفطرة . فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » .

والحديث الشريف نص فى شرح الآية الكريمة : ﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾ [يونس:١٠٥] يعنى : أن [illegible] الإسلام وأحكامه مطابقة تمامًا للفطرة فهما شيء واحد . وأن ما يعترى البشر من عوج فبسبب الانحراف عن الفطرة ، أى : عدم تنشئة الأفراد على أصول الإسلام فى البيت والمدرسة والمجتمع ويعنى ذلك : أن معرفته ﷺ بسنن الله تعالى فى الناس كانت سببًا فى هدايتهم .

وحين قال ﷺ : « سيهزم الجمع .. » كان ذلك لما رآه من استعداد متصل ثقة بالله عز وجل .. أما نحن : فلما جهلناها خسرنا وخسر كذلك غيرنا لما تجاهل هذه السنن إن مصائب الحرب العالمية وما نزل بالناس من دمار . وما حل بهم من عذاب. .كان بسبب تقصيرنا الجزاء الوفاق لما يحمله الناس من أفكار خاطئة ومنها إنكار هذه السنن وخذ أمثلة على ذلك :

غدرت إنجلترا بالعرب : أعطت سوريا لفرنسا ، ثم أعطت فلسطين لليهود ، عن طريق الانتداب البريطانى .

وقد خرق « هتلر » حياد « بلجيكا » وغدر بحليفته « روسيا » وهاجمها على غرة بعد أن مكنته من الانتصار على « بولندا » ثم على فرنسا وحلفائها .

وهاجمت « اليابان » أمريكا فى ميناء (برل) . وكان ذلك الهجوم من غير إنذار وأغرقت أسطولها . ولكن ماذا حدث ؟

﴿ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ﴾ ، **﴿ وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ ﴾** ، فلله تعالى سننه فى أهل الغدر ، فقد هزمت ألمانيا فى الحرب الأولى ، وهزم هتلر فى الحرب الثانية . وهزمت اليابان فيها كذلك . ثم ذهبت إمبراطورية إنجلترا . . والتى كانت لا تغيب عنها الشمس .

المتعة القليلة والعاقبة الوبيلة :

يقول الله عز وجل في سورة الإنسان : **﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً (٢٦) إِنَّ هَؤُلاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلاً (٢٧) نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً (٢٨) ﴾** .

تحاول القوة الباطشة على مدار التاريخ أن تفرض على الناس منطقها الغشوم وقد ينال المؤمنين هذا القهر . . الخط الأوفى ، والمؤمنون مطالبون أن يعتصموا بالقوة التى لا تقهر . . بالخضوع لله القاهر فوق عباده . . ثم بتسبيحه تعالى تسبيحًا يزوِّد المؤمن بالطاقة الدافعة . . وذلك قوله تعالى : **﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً ﴾** .

سبحه : هزيعًا طويلاً . . نصفه . . أو انقص منه قليلاً . أو زد عليه . ذلك بأن الرحلة مضْنية . . والزاد قليل . . ولابد من التزود لهذه الشُّقة البعيدة . . تحديًا لقطاع الطريق .

إن فى الذكر ليلاً . . فرارًا من الرياء . . ثم هو نأى بالنفس من صخب الحياة وفتنتها . . بما فيها هؤلاء الطغاة الذين يُدلون بما يملكون . . إلى جانب كونه متعةً للنفس يحملها على استعذاب العذاب . . وما يترتب عليه من كسر غرور هؤلاء الأعداء الذين يرون المؤمنين فى بلائهم أقوى منهم فى غناهم وقوتهم .

وإنها لَتَوْجيهات راشدة . . تؤكد ضرورة تطهير النفوس من الخطايا أولاً . . عن

طريق التسلح بهذه القيم .. الواقية من وعثاء الطريق .

وإذا غالب المؤمنون لذة الكرى بالذكر .. كان ذلك تدريبًا للنفس على مقاومة رغائبها .. وإيثار لقيم الخير على لذاذات الدنيا ثم كان استصغاراً لقوى الأعداء واستهانة بما يمكرون وما يصنعون ويعنى ذلك كما يقول الرازى : ﴿ **إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا** ﴾ لقد هديناك إلى هذه الأسرار . وشرحنا صدرك بهذه الأنوار . وإذ قد فعلنا بك ذلك . فكن منقاداً مطيعًا لأمرنا .. وإياك أن تكون منقاداً مطيعًا لغيرنا .

ونقول : وليكن الذكر .. والتسبيح بخاصة زادك الذى تتجاوز به عثرات الطريق وتواجه به قطاع هذا الطريق .

ومما يعينك على هذه الطاعة .. ويعمِّق فيك معنى الصبر .. ما تعلمه من طبائعهم وأحوالهم .. التى بمعرفتها واستيعابها يهون عليك أمرهم .

﴿ **إِنَّ هَؤُلاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلاً** ﴾ [الإنسان] إن العيب ليس فى الرسالة .. وإنما فى قلوبهم الهشة . والتى أضناها ما يلاقون من شهوات وشبهات.. ومن ثم فهى هياكل سوف تسقط فى مرحلة من مراحل الطريق .

أما أنت فمنتصر من الآن .. والمستقبل الواعد لك . وللمؤمنين وإذا كانوا يقولون : إذا اشتد الكلف ـ أي : الحب ـ هانت الكُلف .

فامض لشأنك جاعلاً من بلائك ثمنًا تقدّمه فى سبيل هذا المستقبل المرموق ، هذا المستقبل الذى هو من نصيب العقول .. التى ترفض الشبهات .. والقلوب .. التى تستعلى على الشهوات .. وإنها لهى الواصلة حتمًا إلى شاطىء النجاة .. فائزة بالحياة .

إن هؤلاء الكافرين : بلا إحساس بالقيم . من أجل ذلك يُقبلون بل ويتنافسون فى حب العاجلة . ويترتب على ذلك أنهم لا يطيقون سماع لفظ الآخرة لأنها هى التى تفطمهم عن شهواتهم وهم يريدُون أن يستمروا سكارى بخمرها .. وجمودُهم هذا على المحسوسات .

هو منشأ البلادة والقصور . ومعدن الأمراض للقلوب التى فى الصدور . ومن مظاهر هذا المرض أنهم يتجاهلون يومًا ثقيلاً سيحشرون فيه . . وإنه ليوم ثقيل وبيل حقًا لن يطيقوا مواجهة تبعاته وكيف يطيقون حِملاً ثقيلاً . لم يُعِدّوا له عدته في دنيا ولّت . وليس إلى مردها من سبيل ؟

ولئن سُلِّم لهؤلاء النادمين حقهم فى حب الدنيا . . العاجلة فقد كان من المنطق إن كان لديهم منطق كان من المنطق أن يطيعوا الله عز وجل . كان ينبغى أن يكون هذا الحب « مقتضيًا » لعبادته تعالى لا . . مانعًا منها .

ذلك بأن الله عز وجل هو الذى أعطاهم هذه الجوارح التى بها يستمتعون بمباهج الدنيا ، ولكنهم آثروا أن يجعلوا شكر النعمة كفراً بواهبها سبحانه وتعالى . . ومعنى ذلك كما يقول الرازى : (إن الذى حمل هؤلاء الكفار على الكفر . وترك الالتفات. والإعراض عما ينفعهم فى الآخرة . ليس هو الشبهة حتى ينتفعوا بالدلائل المذكورة فى أول هذه السورة . . بل هو الشهوة والمحبة لهذه اللذات العاجلة) ا . هـ .

ويتبدى مشهد القوم فى مرآة الآيات الكريمة على نحو لا يحسدون عليه فلقد كان هناك للاهتداء داعيان . . يُلحّان عليهما ليؤمنوا . ولكنهم آثروا الكفران على الإيمان والضلال على الهدى أما الداعى الأول : فهو داعى الرغبة .

فإن الله تعالى خلقهم . . وشدّ أسرهم : أعطاهم الأعضاء السليمة القادرة على مباشرة وظائفها بلا مشقة . فهم بهذه الأعضاء يتمتعون بلذاذات الدنيا . وخليقٌ بمن كان كذلك أن يسخّر النعمة فى شكر المنعم سبحانه وتعالى رغبة فى تجديدها وتقييدها بهذا الشكر المتجدد .

أما الداعى الثانى فهو داعى الرهبة ، وإذن فقد كان عليهم ـ قبل أن يتخذوا قرار العصيان ـ كان عليهم أن يخافوا القادر على أن يهلكهم . . ويأتى بآخرين أفضل منهم.

إنهم يعيشون بالتمرد خارج الزمن . . فلا حاجة بأحد إليهم . والقادر سبحانه وتعالى إذا تعلقت مشيئته المطلقة بالذهاب بكم والدنيا بمن هو خير منكم . . فلا رادّ لمشيئته سبحانه .

﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا (١٣٣) ﴾ .

﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٦) وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (١٧) ﴾ .

﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴾ .

وليت الجبارين يعتبرون :

إنهم فى إدبار . .

والموت فى إقبال . .

وإذن . . فما أسرع الملتقى !

نهاية المطاف :

يقول الله عز وجل في سورة الإنسان :

﴿ إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا (٢٩) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (٣٠) يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٣١) ﴾ [الإنسان: ٢٩ ـ ٣١] .

يظل المثل الأعلى فى حاجة إلى من يتمثله . . عاملاً به راغبًا فيه معلمًا إياه . فإن لم يجد من يفهمه ويطبقه عمليًا بقى نظرية ، معلقة فى الفضاء تمتد جذورها فى فراغ . . فلا يكون لها فى الواقع ظل . . ولا نجنى من أغصانها ثمرًا .

وعندما يقول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ ﴾ [الإنسان: ٢٩] فيعنى ذلك :

أن هذه السورة بما اشتملت عليه من آيات وعظات وحكم غاليات قد تمت بها نعمة الله تعالى صدقًا وعدلاً . . واستكملت كل عناصر نجاحها وخلودها . . فهى تذكرة . ففى تأملها تنبيه للغافلين.

وفى تدبرها . . فوائد للطالبين الراغبين فى الوصول إلى الكمال ممن ألقى سمعه. . وأحضر قلبه . لقد بين الله تعالى ما فيها أبلغ بيان . وكشف الغموض عنها مزيلاً كل موانع الفهم . . فبقيت تذكيرًا بما غفلت عنه العقول ، وموعظة بما تؤول إليه الأمور .

وفى الإشارة إليها باسم الإشارة للقريب ـ هذه ـ ما يدل على أنها فى متناول أفهامكم لو كنتم فعلا تبحثون عن الخلاص .

وحيث بدا الطريق إلى الهدى سهلاً . . ممهودًا . . ميسرًا . . فقد حان الوقت ليتخذ الإنسان قراره فى هذه الظروف المواتية .

﴿ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً ﴾ [الإنسان : ٢٩] يعينه على ذلك أنه كادح إلى «ربه » ربِّه المحسن إليه . في كل أحوال أطوار حياته . . والذى شاهد من نعمه وأدلة ربوبيته ما يذكره ويثبت قدميه على الطريق الواسع الرحيب ويلهمه دوام الذكر استجلابًا لمصلحته هو ذلك بأن كل عبادة تعطيك وتأخذ منك ، تفعلها وفاء لربك سبحانه وبرًا بخلقه ، ثم إن ما تأخذه منك عائد عليك شخصيًا . ثوابًا من عند الله ومحبة من خلقه .

وأنت بهذا الذكر سائر مع موكب المؤمنين . . وهم رُفقة الخير . الذين يعينونك على فعل الخيرات .

والآية الكريمة تثبت للعبد مشيئة واستقلالاً . . وحرية . . بها يكون مسؤولاً عن أفعاله وأقواله .

وربما ظن ظان أنه بهذه الحرية يُشكل دولة داخل الدولة وتجيء الآية الكريمة التالية لتَخْرُجَ بنا من هذا البحر المتلاطم من الآراء والتأويلات . . وذلك قوله تعالى : ﴿ ... وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان : ٣٠] .

أجل

إن لك مشيئة . . وإن لك اختيارًا . .

لكن ذلك فى إطار من مشيئته سبحانه وتعالى

فأنت تتحرك . . محكومًا بمشيئته عز وجل .

فهو عز وجل « الملك الأعلى . الذى له الأمر كله »

الذى « ينفى سبحانه أن يفعل العبد شيئًا له فيه اختيار ومَشِيئة إلا أن يكون الله تعالى قد شاء هذا الفعل وهو معنى قولنا : ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن » .

﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ كان سبحانه وما يزال عليمًا بما يُصلح عباده . وبما يضرهم . . حكيمًا فى تدبيره ، كل ما يقع فى هذا الكون العريض : مشمول بعلمه المحيط . وبحكمته البالغة .

ومع أنه سبحانه أمَدَّ خلقه بما يعينهم على مواصلة المسير . . إلى هذا المصير . . إلا أن الأمر فى النهاية راجع إليه .

ومن طلاقة مشيئته عز وجل أنه : ﴿ يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ .

فمن علم فى معدنه خيرًا . . أعانه عليه . . ومن علم منه الشر . . ساقه إليه وحمله عليه . فالإنسان سيد مصيره . . وليس له إلا ما سعى .

﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠ ﴾ [الليل] .

وإذا كان هو سبحانه الذى يُدخل من يشاء فى رحمته . . فإن ذلك يعنى :أنه لا توكل إلا عليه . ولا تفويض إلا إليه . ولا خوف إلا منه ولا رجاء إلا فيه . سبحانه وتعالى .

ولاحظ من لطفه وكرمه بالمؤمنين ما يشير إليه التعبير بالفعل المضارع « يُدخل » والمضارع يعنى الدوام والاستمرار والذى يجعل من الطائعين كتيبةً ماضية على سواء الصراط . . مغمورة برحمته سبحانه ومغفرته ورضوانه .

الإنسان .. هناك :

تحكى الدكتورة نوال المعداوى قالت : نزلت ضيفة على امرأة إنجليزية فرأيت الوالد يحنو على كلب . ثم ينادى على خادم أسود ويقول له : الكلب يريد أن يبول وانحنى الزنجى . ثم أخذ الكلب . وقالت البنت للدكتورة نوال : كيف أحترم إنسانًا بعد أن فعل والدى هكذا ؟!

أما فى الإسلام . . فللإنسان كرامته ومكانته . . إلى الحد الذى لا يكمل إيمانه مهما كانت درجته حتى يحب لأخيه ما يحبه لنفسه ، قال ﷺ : « لا يؤمن أحدكم

حتى يحب لأخيه ما يحبه لنفسه » [(١)] .

والمعنى لا يتم إلا إذا أحببت لأخيك نفس ما تحبه لنفسك ، فلا يكفى أن تتمنى أن تكون أول دفعتك . وزميلك الأول مكرراً بل أن تتمنى أن يكون هو الأول وكذلك كان الشافعى الذى كان شعاره : ما ناظرت أحدًا إلا وتمنيت أن يظهر الله الحق على يديه .

وهو بعض ما يفهم من قوله عز وجل : ﴿ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ (٦٧) ﴾ [الزخرف] .

فالذين تجمعهم الدنيا .. تفرقهم الدنيا .. أما المتقون : فلأن هدفهم واحد هو: التقوى فالمهم عندهم .. أن يتحقق الهدف . ولايهم على يد من تحقق . ومن أجل ذلك فلا يعادى بعضهم بعضًا ، وإنما هم من الود فى مقام أمين ، وكانت أجمل اللحظات أن يجتمعوا .. ولو على لقيمات .

عن على رضي الله عنه : « لأن أجمع نفرًا من إخوانى على صاع أو صاعين من طعام، أحب إلىّ من أن أخرج إلى سوقكم فأعتق رقبة » [(٢)] .

عن ثابت البنانى : (أن أنسًا كان إذا أصبح أدهن يده بدهن طيب لمصافحة إخوانه) [(٣)] .

بل لقد تلاشى الإحساس بغريزة التملك ، وهى مما غرزه الله تعالى فى جبلة الإنسان .. إلى الدرجة التى كان حق الجار فى مال جاره آكد من حق المالك نفسه

وقد ورد فى هذا المعنى :

عن ابن عمر رضي الله عنه قال : « لقد أتى علينا زمان . وما أحد أحق بديناره ودرهمه من أخيه المسلم . ثم الآن : الدينار والدرهم أحب إلى أحدنا من أخيه المسلم.

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : كم من جار متعلق بجاره يوم القيامة يقول :

---

(١) البخارى فى فتح البارى ١ / ٢٦ ومسلم ١ / ٦٧ .
(٢) الأدب المفرد ٢ / ٢٧ .
(٣) الأدب المفرد ٢ / ٤٢ .

يارب هذا أغلق بابه دونى فمنع عنى معروفه » « الأدب المفرد ١ / ٢٠٠ »[١] .

وحتى كان من بين السبعة الذين يـظلهم الله بظله : « اثنان تحابا فى الله »[٢] ، « اجتمعا عليه وتفرقا عليه » .

« ما تحاب الرجلان إلا كان أفضلهما أشدهما حبًا لصاحبه »[٣] .

وقد تغالب الإنسان غريزة التملك . وقبل أن تغلبه يوافيه التحريض على التصدق وقبل أن يُـذل المحتاج نفسه بالسؤال . . فى نـفس الوقت الذى يحـتفظ للمـحاويج بكرامتهم فلا ينبغى أن يسألوا . . بل واجبهم أن يتجملوا .

قال ﷺ : « ما نقصت صـدقة من مال قط ، وما مدّ عبد يـده بصدقة إلا ألقت فى يد الله قبل أن تقع فـى يد السائل ولا فتح عبد باب مسألة لـه عنها غنى إلا فتح الله عليه باب فقر » رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط .

وهكذا يظل معنى الأخوة من القوة بحيث يصير المجتمع كالجسد الواحد .

ثم تأمل هذا الود الجامع حتى على قارعة الطريق ، قال ﷺ : « إن المسلمين إذا التقيا وتـصافحا ، وضحك كل منهمـا فى وجه صاحبه لا يفعـلان ذلك إلا غفر الله لهما» ، كان أصحاب النبى إذا تلاقوا تصافحوا وإذا قدموا من سفر تعانقوا .

أما هناك . . فـالهوى . . وعبادة الذات ، فقـد يصاحب الفرد واحـدًا مع علمه بسوء خلقه ؟ لماذا ، لأنه متبع هواه مثله . . فهـو يحب فيه مبتغاه ، وهكذا يُظهرون الحُب . . لالتقاط الحبّ ؟!

دور الأسرة :

وكان للأسرة المسلمة دورها فى المغالاة بقـيمة الإنسان : فقـد سلم الوالد ولده «خريطة العالم » ممزقة ١٠٠ قطعة وفى محاولـة للقضاء على ما اعتراه من ملل طلب من ولده أن يعيد الخريطة سليمة كما كانت . وفى فترة قياسية أعاد الولد الخريطة إلى

---

(١) الأدب المفرد ١ / ٢٠٠ .

(٢) البخاري وفتح البارى ٢/ ١٤٣ .

(٣) الأدب المفرد ١ / ٦٣٦ ، ورواه الطبراني في الأوسط .

والده صحيحة كما كانت . وقبل أن يتساءل الوالد عن سر إعادتها بادر الولد قائلا : لقد كان خلف الخريطة صورة إنسان فكان من السهل إعادتها مستعينًا بصورة هذا الإنسان !!

وأعلن الوالد الدرس : وإذن يابنى فالمهم هو الإنسان ، الإنسان أولاً . وبما يصلح العالم .. وتجمع الخريطة الممزقة ! فإذا كان هذا الإنسان مسلمًا .. فإنه بالعقيدة قادر على أن يفعل الكثير .

هذا الإنسان :

يقول الله عز وجل : ﴿ **لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ④ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ⑤ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ** ﴾ [التين] .

قضت حكمة الله عز وجل أن يخلق الإنسان فى أحسن تقويم زوده بالغرائز والتى لولاها لما استطاع هذا الإنسان أن يبقى موجوداً فى معركة تنازع البناء ، مع الطبيعة ، ومع الحيوانات ، ومع بنى جنسه .

فلولا غريزة البحث عن الطعام لمات جوعًا .

ولولا غريزة المحافظة على النسل لانقرض الجنس البشرى .

ولولا غريزة حب الظهور لم يكن هناك تنافس فى القوة والفضيلة .

ولولا غريزة الغضب .. لم يكن دفاع عن الذات ولا عن الوطن.

ولولا غريزة حب الاستطلاع ما كان علم ولا كان اكتشاف .

ولكن هذه الغرائز جامحة منطلقة تريد الإشباع ..

ومع أنها أسلحة البقاء فى كيان الإنسان .. لكن لابد من العقل الذى يضبط خطوها حتى لاتزل فتضل .

وهو معنى الاستثناء فى الآيات الكريمة ﴿ ... **الَّذِينَ آمَنُوا** ... ﴾ أى : الذين خرجوا من معركة العقل والغرائز .. خرجوا بإرادتهم الحرة سالمين غانمين .

أجل : إن هذه الغرائز التى سلح بها الإنسان لخيره وخير المجتمع تنقلب إلى شر على الفرد والجماعة حين تترك جامحة لا يقيدها العقل المسلم والدين القويم بقيود

الأخلاق فتصبح غـريزة البحث عن الطعام شرَها وبطنة . وغريـزة الجنس زنى وفسقًا وعدوانًا على أعراض الناس . وغريزة الادخار والاقتناء طمعًا وشحًا وسرقة . وغريزة حب الظهـور خيلاء وكـبرًا واستبـدادًا وعلوًا فى الأرض واستـكبارًا وغريزة الـغضب والمقاتلـة جنونًا وسفكًا لـلدماء . . وغريزة حب الاسـتطلاع تجسسًـا وبحثًا دنيـئًا عن عيوب الـناس وعوراتهم ، ومن هذه المـعركة بين العـقل والغرائز تكونـت على طول التجـارب الإنسانية ، وتحددت مكـارم الأخلاق . التى تواضعنـا عليها للتـوفيق بين غرائزنا وحـاجاتنا الفـردية وحاجات المجتـمع ، الشيخ نديم الجـسر (كتاب مـجمع البحوث الثالث ص ١٧٥) .

خلقت الغرائز كاملة فى الناس ، وتظهر الـغرائز فى حياة الطفل فى دور الطفولة والصبا بـينما العقل يكون فـى دور الطفولة كالمعدوم وفى الـصبا كالمتخـبط ويتكامل العقل تدريجيًا يستطيع التحكم فى جوارحه .

منهج القرآن : يقرر المقصد . . ثم يتبعـه بالبرهان الذى يؤكده بالبرهان التاريخى الذى يعضده .

ولو كانت مقاصد القرآن مقسمة على أبواب وفُصول مثل كتب القانون لفقد كثيرًا من بلاغته وإعجـازه وروعته وطلاوته . ولفاتت الحكمة من هذا التـنويع الذى يتسلط بالقرآن على عقل المسلم وقلبه وضميره وأعـماله وأخلاقه كلما قرأ شيئًا من القرآن أو صلى به أو سمعه ﴿ **اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ** ﴾ [الزمر : ٢٣] ، فالتنويع مخاطبة للكيان كله .

الفطرة الصافية :

يقول الماديون : الإنسان مفطور على الإثم . . ولكن الإسلام يقرر عكس هذا . . ففتح بذلك أمامه أبواب الترقى . . فى الوقت الذى يهبط به الماديون فى الحضيض .

ولكن رسولنا يقول : « كل مولود يولد على الفطرة . . . » .

إذا كانت الـنفس الإنسانيـة على الفطرة الأولى . . كـانت متهـيأة لما يرد عليـها وينطبع فـيها من خير أو شـر . وبقدر ما يسبق إلـيها من أحد الخلقين . . تـبعد عن الآخر ويصـعب عليها اكـتسابه . فصاحـب الخير إذا سبقـت إلى نفسه عوائـد الخير

وحصلت له ملكته . . بعد عن الشر وصعب عليه طريقه .

وكذا صاحب الشر : إذا سبقت إليه أيضًا عوائده ، وكذلك أهل الحضر . لكثرة ما يعانون من فنون الملاذ ، وعوائد الترف . والإقبال على الدنيا ، قد تلونت أنفسهم بكثير من مذمومات الخلق والشر . . وبعدت عليهم طرق الخير ومسالكه بقدر ما حصل لهم من ذلك .

حتى لقد ذهبت عنهم مذاهب الحشمة فى أحوالهم ، فتجد الكثير منهم يعتزمون فى أقوال الفحشاء فى مجالسهم وبين كبرائهم وأهل محارمهم ، لا يصدهم وازع الحشمة لما أخذتهم به عوائد السوء ، وأهل البدو ، وإن كانوا مثلهم مقبلين على الدنيا إلا أنه بالمقدار الضرورى .

الفصل الثانى

من الإنسان إلى الأكوان

مدخل

.. وكما كانت معرفتنا بخواص المجتمع سبيلاً إلى السيطرة عليه كذلك .. فإن معرفتنا بخواص المادة يكون سبيلاً للسيطرة عليها .. ثم الإفادة منها .

أهمية الدراسات الكونية

تمهيد :

قبل الإسلام لم يكن للعلم التجريبى مكان .

وعندما تحدث فلاسفة اليونان عن بعض القضايا العقلية . ولم يحاولوا إثبات صحة قضاياهم بالتجربة أو المشاهدة . . بل ربما لم يستحسنوا ذلك ، أما فى الإسلام فقد كان له مع التجربة شأن آخر ، لقد حث الناس على :

أ ـ المشاهدة .

ب ـ التجربة .

جـ ـ الاستقراء .

وإليك بعض الآيات الشاهدة بذلك : ﴿ قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ (١٠١) ﴾ [يونس] .

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٦٤) ﴾ [البقرة] .

﴿ إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٣) وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٤) وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٥) ﴾ [الجاثية] .

﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (١٦) وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ (١٧) إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ (١٨) وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ (١٩) وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ (٢٠) وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢١) وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ

السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ (٢٢) ﴾ [الحجر] .

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٩٩) ﴾ [الأنعام]

﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (٢٠) ﴾ [الغاشية] .

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ... ﴾ [العنكبوت : ٢٠] .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ... ﴾ [فصلت : ٥٣] .

ورؤية الآيات قريبة . . فى متناول من استعد لها . بدليل التعبير بالسين لا بسوف ثم إنه وعد من الله القادر تحريضًا للبشر على البحث والنظر .

وضمير العظمة شاهد بإمكانها . .

ثم هى آيات . . فى كل فن . . وهى كثيرة . . كما يفيد التنكير . .

أ ـ فى الآفاق أولاً .

ب ـ ثم فى النفس .

ألا وإن لطف الله تعالى يحيط بالراغبين فهو أولاً يمكّنهم من الرؤية والكشف ، وثانيًا حين يضعون عقولهم فى الاتجاه الصحيح . . إنه تعالى سيريهم الحق أخيراً . والنتيجة صلاح الحال ، وصلاح المآل .

ولقد استجاب المسلمون لدعوة القرآن الكريم فشاهدوا وجربوا واستقرؤوا بلا دماء ولا ضحايا . بعكس ما حدث فى أوربا .

فقد ضحّت أوربا بمئات الألوف من البشر فى سبيل الحصول على مثل ما وصل إليه المسلمون . . فلم يُفلحوا .

وإذا انتفع المسلمون بعلوم الروم .. والفرس .. والهند ،والإغريق .. إلا أنهم استوعبوها وهضموها .. وسيطروا عليها .

قال فيليب : حتى إن العلوم والفنون التى أفنت الأمة الأغريقية فى ترويجها وتطويرها إلى أوج الكمال قرونًا ... تلقاها هؤلاء العرب فى عدة عقود فقط (١) .

أهمية دراسة الكونيات :

وعد من الحق سبحانه أن يكشف لعباده عن سننه في الكون .. لكنه قدم آفاق الكون فى الذكر . لما لها من دلالة ظاهرة على خالقها سبحانه . ولأنها الوسيلة المتاحة لكل مستويات البشر ، البر والفاجر ، والعالم والجاهل .. فدائرة الكون أوسع وثمراته أوفر ..

وقد أشار العلماء إلى ذلك مستدلين بتقديم الأمر بالقراءة فى الكون على الأمر بالقراءة فى الكتاب .

وذلك قوله تعالى : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) ﴾ .

فقراءة الكون المنظور مقدمة على قراءة الكتاب المسطور .. أو هى معها فى آن .. وحين يلتزم الدعاة بهذا الترتيب توفر لهم من وسائل الدعوة ما يلزمون به الأجانب الذين لا يتم إيمانهم إلا بالحوار القائم على المشاهدة والتجربة .

دلائل التوحيد فى صنع الله تعالى :

يقول الشيخ محمد الغزالى (٢) :

لا سبيل إلى معرفة الله عن طريق التأمل فى ذاته ، فإن الوسائل إلى ذلك معدومة وإنما طريق التعرف على الله يبدأ من التأمل فى خلقه . وعن طريق التفكير السليم في الحياة والأحياء . واستخلاص المعارف القيمة الخارجة من الأرض . أو النازلة من السماء . يمكننا أن ندرك طرفًا من عظمة الخالق الأعلى . وما ينبغى أن

---

(١) تاريخ العرب ٣٠٧ .

(٢) نظرات فى القرآن ، صفحة ١٢٨ وما بعدها .

يوصف به من كمال .

كيف يعرف روعة القدرة . وإحاطة العلم . ودقة الحكمة . وجلال الموجد الكبير امرؤٌ مغلق الذهن . مكفوف البصيرة ؟ يمشى على الأرض كما تمشى السائمة . لا يستبين من صفحات العالم إلا ما تستبينه الدواب من قوانين الكهرباء ! أو أسرار الجاذبية أو معالم الجمال . أو طبائع العمران !

إنك تنظر إلى الآلة الدواسة ذات التروس المتراكبة . والأذرع المتشابكة . تتحرك كما أريد لها بسرعة ونظام . وتؤدى العمل المطلوب منها برتابة وإحكام . فما تملك نفسك من أن تشهد بحدة الذكاء الذى اخترعها . ومهارة اليد التى قدّرتها . ثم سيّرتها ونحن كذلك ننظر إلى ما بين أيدينا وما خلفنا . وما فوقنا وما تحتنا . فما تملك أنفسنا من الشهادة لله ـ الذى أبرز كله من العدم بأنه خلق فسوى . وقدر فهدى .

وكلما ازدادت معرفتنا بمادة الوجود وسره . وانكشفت لنا آياته وخباياه . . أحسسنا أن عظمة المبدع الماجد فوق ما يطيقه وعينا المحدود . . وأن التحية التى تقدم لهذا الإله الجليل هى : الاعتراف بأن مظاهر وجوده بهرت كما يَبّهر السنا المتألق عيون الناظرين .

إن درسًا فى الطبيعة والكيمياء هو صلاة خاشعة . وإن سياحة فى علم الأفلاك هى تسبيح وتحميد . . وإن جولة فى الحقول الناضرة . والحدائق الزاهرة . أو جولة مثلها فى المصانع الطافحة بالحركة . المائجة بالوقود والإنتاج . هى صلة حسنة بالله .

﴿ ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ ﴾ .

ولقد أتاح لنا الحق تعالى أن نتأمل هذا الكون بما منحنا من مدارك .

من وسائل تحصيل العلم فى القرآن :

يحض القرآن الكريم على البحث والنظر فى مجال الكون كشفًا لسنته تعالى . ليزداد المسلم إيمانًا بقدرته سبحانه .

وقد حثنا على استعمال منافذ المعرفة . . وصولاً إلى حسٍّ بصيرة تعود فى النهاية

إلى إيمان لا يتزعزع .

يقول الدكتور محمد أحمد الغمراوى : (واستعمال السمع والبصر والعقل فى القرآن كثير فى القرآن نذكر منها ما يأتى :

١ ـ استعمال البصر مع العقل :

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ﴾ [العنكبوت : ٢٠] .

﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ ﴾ [تبارك : ١٩] .

﴿ أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) ﴾[الغاشية].

٢ ـ استعمال السمع مع العقل :

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ [الحج : ٤٦] .

٣ ـ استعمال السمع والبصر مع العقل :

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٧٩) ﴾ [الأعراف] .

﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨) ﴾ [النحل] .

﴿ وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً (٣٦) ﴾ [الإسراء] .

٤ ـ استعمال جميع وسائل المشاهدة مع العقل :

﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ ﴾) .

[الأعراف : ١٨٥]

كلمات الله :

ولقد بذلت جهود مستفيضة لكشف أسرار الكون . وحقائق الوجود . وبينما نزلت كتب الله تعالى هداية للناس . وأخذًا بأيديهم إلى صراط الله المستقيم . . كانت حقائق الوجود أدلة أخرى تأخذ بأيدى الحيارى إلى اليقين .

وتمت بذلك نعمة الهداية المنبعثة من الكتاب المسطور . . والمنبثة فى الكون المنشور يقول الدكتور محمد أحمد الغمراوى (١) :

(رأيت مثلاً من طريق العلم فى تعرف أسرار الفطرة . والاهتداء إلى سنن الله فى الكون .

وتبينت كيف أن هذه الطريقة تضمن الوصول إلى الحق فى القريب أو البعيد . وإن استعانت على ذلك بفرض من الفروض .

لكن لا خوف قط على الحقيقة من هذه الفروض . ما دام العلم يُطبِّق فروضه على الواقع . ويمحصها بالتجربة والاختبار . فهذه الطريقة فى الواقع هى طريقة العلم فى الاجتهاد . وبينها وبين طريقة المجتهدين فى الدين وجه شبه مهم هو : أن رجال العلم يستوحون الحقيقة من صنع الله ، ورجال الدين يستوحون الحقيقة من كلام الله . وحديث رسول الله ، فكلّ فى الحقيقة مرجعه إلى الله . وإن لم يصل رجال العلم بعد إلى الله وكلٌّ فى حكم الدين نفسه مرجعه إلى الله .

إن هذه الحقائق الطبيعية التى يكشف عنها العلم ببحوثه إن هى إلا نوع من كلمات الله . أو هى كلمات الله الواقعة النافذة . كما أن آيات القرآن هى كلمات الله الصادقة المنزلة) .

ولقد سمى القرآن حقائق أسرار الخلق كلمات الله فى مثل قوله تعالى : ﴿ **وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** (٢٧) ﴾ [لقمان] .

---

(١) سنن الله الكونية .

﴿ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩] .

العلم الحديث والدعوة :

وكلمات الله فى آيتى لقمان والكهف لا يمكن أن تكون كلماته المنزلة على رسله لأن كلماته سبحانه فى كتبه المنزلة محصورة محدودة . فى حين أن كلماته المشار إليها فى هاتين الآيتين لا حصر لها ولا نهاية .

فلابد أن تكون هى كلماته النافذة فى خلقه . والتى يبدو أثرها متجسمًا فيما نشاهد من الحوادث . وفيما يكشف العلم من أسرار الكون . فالإسلام متسع للعلم كله ، حقائقه وفروضه .

والمجتهد مثاب أخطأ أم أصاب . ما دام يريد وجه الحق . وإن كان العلم لا يعرف إلى الآن : أن سبيل الحق من سبيل الله .

لقد شُغِل العقل الإسلامى زمنًا طويلاً بالبحث فيما وراء الطبيعة . ثم عاد من الرحلة المضنية بخفى حنين ، فلا هو بالقادر على اقتحام مجال لم يخلق له أصلاً . . ولا هو بالذى شغل نفسه بالواقع بحثًا وتنقيبًا واستقراء فى الوقت الذى انكفأت أمم الأرض على دراسة مظاهر الكون فحققت بالدأب والسهر ما توخته من تقدم فى مجالات الاختراع . . وصار همنا استيراد ما حققوا . . والاستغراق فى تقليدهم فيما يأكلون ويلبسون . . لا فيما يبحثون ويكتشفون !!

المكتشفات العلمية والدعوة :

إن القرآن الكريم معجز ببلاغته . . والتحدى به قائم على مر العصور . وما زالت أعناق البلغاء خاضعة لسلطانه . وإلى أن تقوم الساعة . لكن غلبة العامية اليوم إلى جانب محاولات المستشرقين لصرف الناس عن دين الله . . تفرض علينا أن تركز على الجانب الكونى حتى ننازل الأجانب بأسلحتهم .

والإشارات العلمية فى الآيات القرآنية كفيلة بالتمكين للإسلام فى قلوب الغافلين والمعاندين . ممن لا يدينون بديننا ولا يتكلمون لغتنا .

شبهات وردها :

أذهلت الكشوف العلمية عقول الناس .. بما ابتدعت من مخترعات .. وصلت به إلى القمر . لقد وقع العقل الإنسانى فى حيرة أو شك بسببها أن ينفلت عياره . بل لقد انفلت فعلاً عندما بذل ولاءه للمدنية الحديثة .. وأدار ظهره للدين الذى بدأ يتنكر لقيمه وآدابه .. الأمر الذى يفرض تدبراً أعمق لإعجاز القرآن العلمى .. حتى يمكن أن نخاطب العصر بأسلوب عصرى .

ومع هذا .. فإن هناك شبهات حول جدوى هذه الدراسة نورد بعضها :

١ ـ إن بحث الإعجاز العلمى فى القرآن مسألة ثانوية .. وترف عقلى .. وأهم منه التركيز على أصول الدعوة التى هى مهمة القرآن الأساسية .

٢ ـ ربما ـ لو فتحنا الباب إلى مثل هذه الدراسة ـ اقتحمه من لا علم عنده ولا دليل . وفى هذا من الفساد ما الله به عليم .

وربما جاز لنا أن نقول :

لاشك أن مهمة القرآن الأساسية هى الدعوة .. لكننا نؤكد أن الإشارات العلمية فى القرآن ستكون فى خدمة الدعوة التى تُمكِّن لها فى قلوب لا تفهم إلا هذا الأسلوب العلمى .. وبخاصة فى بلاد لا تدين بالإسلام .

وإذا كان الإلحاد اليوم يسخر المكتشفات العلمية فى معركته مع الإسلام فحرى بالمسلمين أن يأخذوا بزمام المبادرة فى معركة لا ينتصر فيها إلا الأقوياء الأذكياء .

ومالنا نذهب بعيداً :

إن الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ** ﴾ [فصلت:٥٣] لكن هذه الرؤية مشروطة بالإيمان ، أما من أبى فلن يرى .

سأصرف عن آياتى :

يقول أ/ سيد قطب : (إن الله تعالى يعلن عن مشيئته فى شأن الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق أنه سيصرفهم عن آياته فلا ينتفعون بها ولا يستجيبون لها ،

آياته فى كتاب الكون المنظور ، وآياته فى كتبه المنزلة على رسله ، وذلك بسبب أنهم كذبوا بآياته سبحانه وكانوا عنها غافلين) .

يقول الزمخشرى : (سأصرف عن آياتى : بالطبع على قلوب المتكبرين وخذلانهم فلا يفكرون فيها ولا يعتبرون بها غفلة ، وانهماكًا فيما يشغلهم عنها من شهواتهم .

وقيل : سأصرفهم عن إبطالها وإن اجتهدوا كما اجتهد فرعون أنْ يبطل آية موسى بأن جمع لها السحرة فأبى الله إلا علو الحق وانتكاس الباطل ، وقيل : سأصرفهم عنها وعن الطعن فيها والاستهانة بها وتسميتها سحرًا بإهلاكهم) .

يقول الرازى : (سأصرف يتناول المستقبل . وقد بين تعالى أنهم كفروا فكذبوا من قبل هذا الصرف ، فالآية دالة على أن الكفر قد حصل له فى الزمان الماضى ، فهذا يدل على أنه ليس المراد من هذا الصرف الكفر بالله) .

وقيل : (سأصرف مذكور على وجه العقوبة على التكبر والكفر . . والخلاصة ليس المراد من هذا الصرف الكفر .

والوجوه الصحيحة فى الآية ما يلى :

١ ـ معنى صرفهم إهلاكهم فلا يقدرون على منع موسى من تبليغها ، ولا على منع المؤمنين من الإيمان بها .

٢ ـ سأصرف هؤلاء المتكبرين عن نيل ما فى آياتى من العز والكرامة المعدين للأنبياء المؤمنين ، وإنما يصرفهم عن ذلك بواسطة انزال الذل والإذلال بهم ، وذلك يجرى مجرى العقوبة على كفرهم وتكبرهم .

٣ ـ أن من الآيات آيات لا يمكن الانتفاع بها إلا بعد سبق الإيمان . ومعنى يتكبرون : أنهم يرون أنهم أفضل الخلق ، وأن لهم من الحق ما ليس لغيرهم ، وهذه الصفة ـ التكبر ـ لا تكون إلا لله وقيل : التكبر هو إظهار كبر النفس على غيرها) . (الرازى ٨ / ٣ ، ٤) .

يقول الألوسى : (تحذير عن التكبر الموجب لعدم التفكر فى الآيات التى كتبت

فى الألواح التوراة المتضمنة للمواعظ والأحكام ، أو ما يعمها وغيرها من الآيات التكوينية التى من جملتها ما وعدوا إراءته من دار الفاسقين .

ومعنى صرفهم عنها : منعهم بالطبع على قلوبهم فلا يكادون يتفكرون فيها ، ولا يعتبرون بها لإصرارهم على ماهم عليه من التكبر كقوله تعالى ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾) .

من سلبيات الحضارة

المخترعـات للطنطـاوى

(فالاختراعات ليست خيرًا كلها ، وليست نفعًا للبشـرية مطلقًا ، والعلم الذى اخترع السيارة والمصباح الكهربائى ، هو الذى اخترع الديناميت والغاز الخانق ، وهذه البلايا الزرق ، فشرُّه بخيره والنتيجة صفر .

ودع هذا . . ولنأخذ الاختراعات النافـعة : لنأخذ المواصلات مثلاً . . لاشك أن العلم سهَّلهـا وهونها ، فقرب البعيـد ، وأراح المسافر ، ووفرَّ عليه صحـته ووقته ، ولكن هل أسعد ذلك البشرية ؟

أحيلك فى الجواب على (شبنالمر) لترى أن البـشرية قد خسرت من جرّائها أكثر من الذى ربحته : كان المسافر من بغـداد إلى القاهرة ، أو الحاج إلى بيت الله ، ينفق شهرين من عمره أو ثلاثة فى الطريق ، ويـحمل آلامًا ، وتعرض له مخاوف ، ولكنه يحس بمئات من العواطـف وتنطبع فى نفسه ألوف من الصور ، ويتـغلغل فى أعماق الحياة ، ثم يعود إلى بلد ، فيلبث طول حياته يروى حديثها ، فتكون له مادة لا تفنى ويأخذ منها دروسًـا لا تنسى ، أما الآن فليس يحتاج المسافـر (إن كان غنيًا) إلا إلى الصعود عـلى درجة الطيارة والنزول منـها حيث شاء بعد سـاعات قد قطعهـا جالسًا يدخن دخينة أو يقرأ فى صحيفة ، فهـو قد ربح الوقت ، ولكنه خسر الشعور ، فما نفعتنا المواصـلات إلا فى شىء واحد ، هو أننا صرنا نقطع طريقنـا إلى القبر عدوًا ، ونحن مغموضو العيون . . لم نر من لجّة الحياة إلا سطحها الساكن البرّاق .

ولنأخذ الطب . . وليـس من شك أن الطب قد ارتقى ، وتغلب على كـثير من الأمراض ، ولكنَّ ذلك لا يُعـد مزيَّة لأنه هو الذى جاء بهذه الأمـراض ، جاءت بها الحضارة ، فإذا سرق اللص مئة إنسان ، ثم ردّ عـلى تسعين منهم بعض أموالهم أيعدّ محسنًا كريمًا ، أم لا يزال مطالبًا بالمال المسروق من العشرة ؟

انظر فى أى مجتمع بشرى تتغلغل فيه الحضارة ، ولم يمتـد إلى أعماقـه العلم ،

وانظر فى صحة أهله وصحة المجتمعات الراقـية ؟ هل الأمراض أكثر انتشاراً فى فيافى نجد ، أم فى قصور باريس؟ أو ليس فى باريس أمـراض لا أثر لها فى البادية ؟ فليس إذن من فضل العلم فى أنه داوي بعض الأمراض بل هو مسؤول عن نشرها كلها ؟

وتعال يا سيدى ننظر نظرة شاملة ، هل البـشر اليوم (فى عصر العلم) أسعد أم فى العـصور الماضيـة ؟ أنا لا أشك فى أن سعـادتهم فى العصـور الماضية ، عـصور الجهالة (كـما يقولون) كانت أكـبر وأعمق ، ذلك لأن السعادة لـيست فى المال ولا القصور ولا الترف ولا الثقافة ، ولكن السعادة نتيجة التفاضل بين ما يطلبه الإنسان ، ويصل إليـه ، فإذا كنت أطلب عشـرة دنانير وليس عنـدى إلا تسعة فأنا أحـتاج إلى واحد ، فسـعادتى ينقصها واحـد ، أما روكفلر فسـعادته ينقصها مـليون ، لأن عنده تسعة وتـسعين مليونًا وهو يطلـب مئة . فأنا بدنانيـرى التسعة أسعـد من روكفلر . . وكذلك الإنسان . لم تكن مطالبة كثيرة فى الماضى فكان سعيدًا لأنه يستطيع أن يصل إليها ، أو إلى أكثرهـا . أما مطالبه اليوم فهى كثيرة جـدًا لا يستطيع أن يصل إلا إلى بعضها فهو غير سعيد !

نماذج وصور :

أصر اتحاد الـطلاب فى كلية عمـلية على تزيين جـدران الكلية بآيات كـونية من القرآن الكريم . وقلت لأحدهم : حسنًا فعلتم .

وأحسن منه أن تَمثُـلوا بين يدى أستاذ يستنبط لكم من خـلال هذه الآيات حقائق علمـية سبق القـرآن الكريم إلى تقريـرها . . فإذا سافـرت إلى الخارج لتحـصل على شهـادة كنت مزودًا بـزاد من فقه الإسـلام يقف بك عـلى أرض صُلبة هـناك . حين تخاطب القوم باللغة التى يفهمونها :

اقرأ مثلاً قوله تعالى : ﴿ **أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٧٩)** ﴾ [النحل] .

مادا أنت قائل هنا :

إنها أجسام ثقيلة . . فهى قابلة للسقوط . ولكن القادر سبحانه وتعالى «يمسكهن»

بقدرته . . حيث هيأ لهن الجو بُسُنن كونية مكنتها من الطيران .

وفى الآية تحريك للعقل البشرى . . ليستيقظ . . وتحريض له ليسخّر ذكاءه فى الكشف عن أسرار الطير فى جو السماء .

وفيها إيحاء لا يخفى لتستعد الأمة . . لتدخل عصر الفضاء !!

جواز المرور :

ولكن . . ليس كل إنسان قادراً على كشف هذه الأسرار . . ولابد من الإيمان مدخلاً إلى هذه الساحة الطهور . . وكما قيل بحق : فليبسط الصياد شبكته .

إن الذى يريد المياه . . . يَردُ الينابيع والأنهار ، وموجات الأصوات موجودة فى كل مكان ، لكن لا تسمعها إلا « باللاَّقط » .

اعرف نفسك أولاً . . ثم الكون ثانيًا ثم اعرف ربك من خلالهما . . ولكن أكثر الناس يتكلمون . . ويُشهدون الله على ما يعملون . . ولكن « السلوك » مقطوعة بينهم وبين الله تعالى . . فكيف يفهمون . . بل كيف يعملون ؟

من أسرار مملكة الطير :

من آيات الله تعالى فى خلق الطير :

١ ـ اكتشف العلماء أن جناح الطير مغطى بأنواع من الريش تختلف طولاً وحجمًا ومن حيث تكوين الشُّعيرات .

وقد كبَّروا مقطعًا من الريش . ثم كبَّروا ثانيًا جزءًا من هذا المقطع . . واستمروا كذلك . فرأوا من الأجهزة الدقيقة ما يمكنه من الطيران . . والقبض والبسط .

٢ ـ ثبت أن عظام الطيور خفيفة الوزن جداً . لتتم عملية التحليق بنجاح .

٣ ـ لاحظوا أن طائر « النورس » يحسب المسافات بدقة مذهلة . . ويسدد منقاره إلى جسم الفريسة وهى فى الماء . . ورغم تموُّج المنقار بالماء . إلا أنه ينطلق كالقذيفة لا يخطئ هدفه .

٤ ـ ثم رأوه يتحرك مع نسيم البحر الدافئ الصاعد إلى أعلى ويهبط مع النسيم

البارد النازل طبقًا لقانون ، خفة الحار ، وثقل البارد .

٥ ـ شرَّحت الطيور فرأوا قلب الطير كبيرًا بالنسبة إلى جسمه ، لأن عملية الطيران شاقة . واتساع القلب مما يعين عليها .

٦ ـ ظهر أن حرارة الجسم . ودفء الدم أكثرُ من الكائنات الأخرى نظرًا لحالة الجو فى الأعالى .

من الكون .. إلى المكون سبحانه :

ويمكن للداعية .. ومن خلال هذه الآيات .. أن يستفيد بها فى التمكين للدعوة فى قلوب الناس .. كما قال العلماء :

فلتكن هذه الأعاجيب سبيلاً إلى ذكر خالقها سبحانه وتعالى . وتدعيمًا للإيمان به تعالى .

مع اليقين بأن العلماء الأجانب الذين اكتشفوا ذلك .. لم يحدثوا مفقودًا .. وإنما أظهروا موجودًا .

بداية النهضة الحديثة :

ولاشك أن الدخول فى مملكة الطير بهذا العقل الداعى .. فتح الطريق أمام نهضة يعيش العالم اليوم آثارها .. فالانتهاء من دراسة مملكة الطير .. والوصول إلى وعى الدقائق من حياتها كان بداية مرحلة أخرى دخل فيها العالم عصر الفضاء .. وصناعة الطائرات بل والنفاثات .

كما أن تشريح الحيوانات المائية .. ودراسة خصائص المياه .. قَادَ الباحثين إلى الغوص وراء الأسرار التى تمكن الحيوان البحرى من تحمل ضغط الماء العالى .. فلما اكتشفوا هذه الأسرار .. كان ذلك سبيلاً إلى صناعة الغوّاصات .. وتمكين الإنسان ليكون سيد البحار بلا منازع .

نسيت أن أذكر أن واحدًا من رواد الفضاء قال بعد أن رأى بالمكبِّر « جناح بعوضة» لو أنك قارنت جناح البعوضة وما يحتويه من شعب لحكمت على جناح الطائرة بأنه لعب أطفال !!

علاقة الإنسان بالكون :

وضع الله تعالـى الإنسان فى أتم البيئات الـكونية الأصحِ لجسمه وعـقله وروحه ليتمكن من استعمار الكون لصالحه .

وهى فى نفس الوقت : تذكير بنعم الله سبحانه يحْمل على شكرها . . يَعْرضها الحق تعالى أمام بصر الإنسان وبصيرته . . لتتنبه قوى الإنسان المفكرة . وتتأمل ظواهر الكون . والعلاقات التى تربط بينها .

تدريبات للعقل على الملاحظة . .

والملاحظة تدعو إلى التجربة . ومزاولتها .

وتلك أسس العلم التجريبى الحديث . . سبـق القرآن الكريم ولقّنها للمسلمين . وكما يقول الدكتـور سعاد جلال : (فانتفعوا بها حينًا مـن الدهر . ثم غلبت عليهم شقوتهم) .

يقول الحق سبحانه : ﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ [النحل : ١٤] .

ويقول سبحانه فى سورة الرحمن : ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ (٢٢) ﴾ .

فى الآية الأولى يمتن سبـحانه على الناس : باللحم الطرى . وهو أكـثر اللحوم لذة ، وعبر بالفعل (تستخرجوا) . . إشارة للمعادن التى يعانى الإنسان فى إخراجها كما قال بعـض المحدثين ـ وتحتاج إلى عمليـات كيماويّة معقدة إلـى أن تصلح للزينة وهذا ما أشير إليه بالسين والتاء . . المقيدتين لمعنى المعالجة والمعاناة .

أما فى سورة الرحمن . . فـربما كان التعبير بالفعل (يـخرج) هكذا سهلاً بدون السين والتاء . . ربما أشـار إلى أنَّ اللؤلؤ والمرجان مما يُتَـزّينُ بهما فور خروجـهما من البحر رأسًا . . وبلا معاناة !

وتأمل فـى قوله تعـالـى : ﴿ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ ﴾

[الرحمن : ٢٤]

لم يقل سبحانه وتعالى وله السفن . . مثلاً . . وإنما قال : ﴿ وَلَهُ الْجَوَارِ ﴾ فقد

يكون للإنسان دخلٌ فى تسوية السفينة وإعدادها ابتداء .

ولذلك لم يمتن عليه بإنشائها حتى لا يتبجح ويركبه الغرور مُدِلاً بعمله فيها لكنه سبحانه وتعالى يذكره بنعمة الجريان .

فالسفينة : جسم صلب . ثقيل .. تمضى على أثباج الماء بسهولة ويسر .. مع أن الماء سائل مائع قابل للإنشقاق .

ولكن الحق تعالى تلطف بعباده ... فخلق من السنن ما مكن الإنسان من أن يخوض بها الماء ليحقق هذه الفوائد .

أن يعقد بين الأمم صلاتٍ شتى .. إلى جانب نقل التجارات .. وتقريب المسافات .

﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل : ٧] .

والمقصود بالآية الكريمة : التذكيرُ بنعمةٍ وصلت بالإنسان إلى عصر الغواصات والبوارج .

لقد خلق الله تعالى الكون على أصح الوجوه اللائقة .. وعلى أكملها .. وذلك ليعيش الإنسان على أصح الوجوه وأكملها .

وإذا كان الحق تعالى قد خلق الإنسان نفسه فى أحسن تقويم .. فكانت جوارحه وملكاته على أتم معانى الانسجام والانضباط .. فقد وجب عليه أن ينطلق بهمته ليستغل الطبيعة من حوله .. ثم ليسخرها . ويستعمرها لتكون فى خدمته .. ولتنتهى حركته فى النهاية لتكون معرفة للحق .. والتزامًا به .

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [إبراهيم] .

أجل . . إن الإنسان . . لظلوم كفار فى غيبة الإيمان . . فالآيات الكريمة تعرض أمام بصره . . وبصيرته معًا كتاب الكون الحافل بآيات الإعجاز .

وقد لاحظ الشيخ محمد الغزالى تكرار قوله تعالى : « لكم » فى الآيتين الكريمتين خمس مرات . . لتهز الوعى الذاهل عن آيات الكون المخلوق له شخصيًا . . والمسخر من قِبَل الحق تعالى .

وعليه أن يفتح بصره وبصيرته معًا ليتقدم الخطوة التالية فيتأمل هذه الآيات البينات ولينطلق منها نحو نهضة يملك بها زمام أمره .

فالإنسان أشرف المخلوقات . . ومن ثم فهو سيد الكون . . فإذا وضع القدرُ الإنسان فى هذا الأفق العالى . فعليه أن يشكر خالق هذه الآيات . . أو هذه النعم التى لا تحصى :

أ ـ نعمة التكريم .

ب ـ نعمة الآلاء التى لا تُحصى .

ومن تمام الشكر أن يُبْقِيَ الأرض صالحة كما برأها الحق تعالى . . ثم يضيف إليها من إصلاحه ما يجعلها وعاء للحق الذى يرصد كل جهوده لـلتمكين له . والدعوة إليه .

نعمة الظل :

يقول الحق سبحانه : ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً (٤٥) ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا** ﴾ [الفرقان: ٤٥ ـ ٤٦] .

فى حديث للمرحوم الدكتور سعاد جلال قال « بتصرف » : لما كذب المشركون ضرب الله تعالى الظل مثلاً يدل على إنه إله قادر . . عليم . وقد قالوا :

إن الظل هو : حالة الأرض فى الزمان المتوسط بين طلوع الفجر وطلوع الشمس وهو أمتع أوقات النهار [١] .

---

(١) أذكر للمرحوم الدكتور محمد الغمراوى قوله : تكون الأرض أبرد ما تكون قبيل بزوغ الشمس .

والحق تعالى يخاطب من تصح مخاطبته : ألم تر ؟ وهى رؤية عقلية . تقودك إلى الاعتراف بالواحد سبحانه وهى أيضًا رؤية حسية إلى آثار ومظاهر قدرته تعالى .

ويتأكد أثر النعمة لو تصورنا فقدانها : فلو شاء سبحانه لجعل ظل كل شيء لاصقًا به : الجبل والشجر والجدار .

ولكنه سبحانه وتعالى جعله : متقلصًا . . ومنبسطًا . . ممتدًا . . لنفع الناس .

وجعل الشمس دليلاً عليه : فمسار الشمس وتنقُّلها فى النهار . . يُستدل به على أحوال الظل ، فيُنتفع به الناس على قدر حاجاتهم .

وهى تنسخه بارتفاعها شيئًا فشيئًا . . وبيُسر . . مسايرة لنفع الناس . فلو قبض دفعة واحدة . لتعطلت مصالح الناس بالشمس والظل معًا !

فلماذا يتعامى المشركون ـ والملحدون اليوم ـ فيطعنون فى الرسالة والرسول ؟

وقد ركز الدكتور جلال على نعمة الظل فقال ما نصه : (الوسط بين النور والظلمة : هو أحسن الأوقات إراحة للنفس وإحساسًا بقلة التعب . ومرضاة المزاج .

لأن نور الشمس فيه قدر من إزعاج الحسن والأعين والظلمةُ سببُ انقباض النفس ووحشتها . فكان سكون النفس لمقام الظل أدنى منها ولذلك وُصفت الجنة بدوام ظلها ﴿ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا ﴾ .

وأذكر هنا ما كان يتواصى به الفلاحون فى قريتى من تلافى النوم تحت الشجرة التى لا يصفد ظلها كشجرة الجميز مثلاً . لأن النوم فى مكان تتجاور فيه بقع الظل وبقع الشمس يسبب خللاً فى الجسم من حيث توارد الحرارة والبرودة على الجسم فى لحظة واحدة . فيتمدد بعضه . . . ويتقلص بعضه . . فيختل المزاج . . الذى يكون من أثره : الصداع .

أما إذا صفا الظل . . وامتد . . فإن الجسم يتجانس . . ويشتد الإحساس به نعمة منه سبحانه وتعالى .

وقد وجدت أصلاً لذلك فى قوله ﷺ : « إذا كان أحدكم فى الفيء . . وفى رواية . فى الشمس . . فقلص عنه الظل فصار بعضه فى الشمس وبعضه فى الظل .

فليقم »[١] .

وقد نهى رسول الله ﷺ : « أن يجلس الرجل بين الضَّحِّ والظل » وقال : « مجلس الشيطان ! »[٢] .

والضَّحّ : ضوء الشمس إذا استمكن من الأرض .

ويلاحظ شدة اللهجة هنا . . لأن ارتفاع الحرارة عندئذ يكون ضرره أكبر . . ولاحظ من دلالات رحمته بالعالمين قوله ﷺ : نهى أن يجلس الرجل . . ولم يقل : المسلم . . فهو إذن رحمة للعالمين .

ويهمنا أن نلفت النظر هنا إلى دقة البيان النبوى . . والتى يفرض علينا مدارسته بكل مداركنا . . وصولاً إلى ما يحمل من إشارات علمية .

وتذكر هنا . . ما يأمر به ﷺ الغاضبَ : فمرة يأمره بالوضوء ، ومرة يأمره بالاغتسال ، ولعلنا ندرك . . كيف يكون الوضوء إذا لم يكن الغضب عنيفًا . . وعندئذٍ يكفى إحباط مفعوله : الوضوء . . أما إذا كان كاسحًا عارمًا . . فعلاجه الغسل فلا دواء عندئذ سواه .

﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾ [النحل : ١٠] .

(إن الله تعالى لا ينزل الماء من السحاب على الأرض إلا بمقدار الحاجة . وعلى وفق المصلحة .

والمقصود : هو أن الله تعالى أقام تنظيم الدورة المائية بين البحر من البخار وإنشاء السحاب وإنزال الأمطار على وفق نظام دقيق . محكوم برعاية مصالح الخلق .

وليس فى الطبيعة مكان للعشوائية . ولا الفوضى كل شىء يجرى فيها بتقدير وترتيب محسوب الكيفيات . والأسباب . والنتائج . ثابت بتقدير العزيز العليم .

وهذا الماء هو :

---

(١) رواه أبو داود والحاكم وقال : صحيح الإسناد فى الترغيب ٤٤٩٩ .

(٢) رواه البزار من حديث جابر ورواه ابن ماجه وفى الترغيب ٤٤٩٨ .

أصل الحياة . وأصل بقاء الحياة . . وأصل نعم الإنسان ورفاهيته . هو فى قبضة الله تعـالى . ولو شاء لأذهبـه عنكم من الأرض ، يذهب بـه من مسالكـه فى باطن الأرض ، أو من مجاريه فوق طرائقها .

فمـا أنتم ممسـكون له . فـاحذروا سخـط الله عليـكم بالدخـول فى معـصيتـه والاستكبار عن طاعته) .

الشمس ... والداعية ! :

الشمس تعطى القمر الضوء . .

ولكن يبقى لها مزيد منه . .

ولابد أن يكون الداعية مطبقًا لعمله بمـزيد من الالتزام وليكن لديه من الصبر قدرٌ على ردّ مشـاكسة المدعـو فالنسيم يـخاطب السندان . . بمثـل ما يخاطب به الـغُصن الطرى . . أى يداعبه !!

﴿ **وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ** ﴾ [النحل : ٨] ، إذا كانت الخيل والبغال مما يناسب الحيـاة حينئذ . . ففى قوله تعالى ﴿ **وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ ...** ﴾ ما يناسب المستقبل .

وإذا اتضح الدليل المادى فهناك الطريق المعنوى :﴿ **وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ ...** ﴾ تحملكم الآيات على المضى فيه .

الجبال :

﴿ **وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ** ﴾ [النمل: ٨٨] .

من الناس مـن زعم أن الأرض ثابتة كـمركز لـلكون ، ومنهم مـن قال إن الآية تصف الأحوال عند القيامة . والآية الكريمة تتحداهم : كما أشار الغمراوى .

فهى فى مـرأى العين: جاثمة . . رابضة علـى صدر الأرض ، متحركة بـتدبيره سبحانه . . بلا خـطأ . . ولا خلل . . وإلا هلك من فوقها جمـيعًا . فالحواس إذن ترى شيـئًا وهو فى الحـقيقة بـخلاف ما ترى ولايمـكن أن تكون الحواس طريـقًا إلى الحق . . فقد تُضلنا .

ولاحظ : صنع الله الذى أتقن . . وكيف كانت دليلاً على أنه تعالى يصفها اليوم ، لا غد ، وعند قيام الساعة .

لماذا السحاب ؟ :

١ ـ لأن حركته أسرع الحركات طرًا .

٢ ـ وكانوا يصفُون الفتاة قائلين : إنها تسير كسير السحاب ، لأنها تمضى مصممة . . لا تلتفت يمينًا ولا يسارًا .

وهناك حقيقة يعرفها الأطفال هى :

أنهم لو أداروا دَلْوًا فيه ماء . . ثم أداروه بنسبة واحدة . . وبسرعة . . ونظام . . فإن نقطة واحدة لا تسقط .

الكثير من البشر مخطئون فى إنكارهم للغيب اعتمادًا على حواسهم وهى خداعة كما رأيت . يقول أبو الطيب :

مما أضر بأهل العشق أنهمو هَوَوْا وما عرفوا الدنيا وما فطنوا
تفْنى عيونهمو دَمْعًا وأنفُسهم فى إثر كلِّ قبيح وجهه حسن

كذلك الجبال : أخطؤوا فهمها ، ومن حكمته تعالى أنه أخفى حركتها حتى لا يفزع الناس . . ولا تعكر الإحساس بنعمة الله تعالى فى الجبال :

١ ـ فهى أوتاد .

٢ ـ متاع أرساها متاعًا لكم .

يقول الله عز وجل : ﴿ **إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلا تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ (٤٧) وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ (٤٨) لا يَسْأَمُ الإِنسَانُ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ** ﴾ [فصلت: ٤٧ ـ ٤٩] .

تمهيد : المفروض أن يكون للمسلم وجود فى حاضره ينميه ويطوره . مستفيد من تجارب الماضى . متطلعًا إلى مستقبل أفضل . أما الهروب إلى الماضى تغنيًا به . فهو الإنبهار وهو مجرد موقف سلبى . . عقيم .

وأما الهروب إلى المستقبل .. فهو فزاد من مسؤولية عمارة الحياة بالعمل الصالح ومن هؤلاء ذلك الذى سأله ﷺ عن الساعة فقال له : وما أعددت لها ؟

وهذه الآية ترد على هـذا الصنف : فإليه .. وحـده .. كما يفيد تـقديم الجار والمجرور « إليه » فهو وحده العليم بالسـاعة .. متى تجيء ويعلم ما تحمل من أنثى . ومتى تصنع جنينها . كل ذلك لا يتم إلا بعلمه هو سبحانه وحده كما يفيد الحصر إلا بعلمه .

سؤال : إذا كان الله تعالى عليمًا بكل شيء .. فلم خص هذه الثلاث بالعلم ؟

والجواب : ربما كان ذلك لفتًا للأنظار إلى ما فيها من إعجاز .. والذى يجب أن يكون موضع اهتمامنا .. على الأقل كأسلوب من أساليب الدعوة فى عصر العلم .

أى إنها : دعوة للهاربين إلـى الماضى .. وإلى المستقبل ليعيشـوا الحاضر متأملين ما فى الكون من أسرار تغرى بالبحث والنظر فى مملكة النبات ، ومملكة الإنسان .

وحبذا لو شَغَل طالب الزراعة . وطالبُ الـطب وطالب العلوم . حبذا لو شغلوا أنفسهم بهذه الـدراسة . متأملين فذلك أجدى مما يلجـأ إليه هؤلاء الطلاب من خطب الجمعة التى يسجـلونها لأنفسهم كدعاة هربوا من تخصـصهم إلى ما لا يحسنون .. فكانوا كالمُنبت : لا أرضًا قطع ، ولا ظهرًا أبقى .

مدى أهمية هذه الدراسات فى الدعوة

كان الدكتور جرينيه عضواً فى مجلس النواب الفرنسى ، وقد سئل يومًا عن سبب إسلامه فقال : (إنى تتبعت كل الآيات القرآنية التى لها ارتباط بالعلوم الطبية والصحية والطبيعية والتى درستها فى صغرى . وأعلمها جيداً . فوجدت هذه الآيات منطبقة كل الانطباق على معارفنا الحديثة . فأسلمت .

أسلمت : لأنى تيقنت أن محمداً ﷺ أتى بالحق الصُّراح من قبل أكثر من ألف سنة من قبل أن يكون له معلم أو مدرس من البشر ولو أن كل صاحب فن من الفنون أو علم من العلوم قارن كل الآيات القرآنية المرتبطة بما تعلم جيداً .. كما قارنت . لأسلم بلا شك . إن كان عاقلاً خاليًا من الأغراض) [١] .

فأنت ترى واحداً أسلم كإخوة له من قبل : علماء .. وأدباء .. وشعراء . أسلموا من بوابة العلوم الكونية . وكان إسلامهم حجة أقامها الحق تعالى على من لم يؤمن من أقوالهم .

وإذا كان رجل مهم كالدكتور جرينيه فى بلد علمانى كفرنسا قد استطاع أن يصل إلى حقيقة الإسلام .. وحده .. ولا معلم فكيف يكون الحال لو أنه وجد من علماء المسلمين المتخصصين من يعينه على ذلك .

إذن لكانت النتائج باهرة .. ووجدنا الناس . ومن العلماء بخاصة .. يدخلون فى دين الله أفواجًا .

صورة من واقعنا :

وتتسائل : ماهو دور المتخصصين من المسلمين اليوم ليدعوا إلى الإسلام بلغة العصر . والتى هى أنسب خطاب نتعامل به مع الغرب المادى ؟

هناك فعلاً جهود مشكورة فى هذا المجال . لكنى أذكر هذا الموقف السلبى . لأنه يكاد بشكل ظاهر ينبغى التصدى لها بالتوجيه السليم .

---

(١) الوعى الإسلامى إبريل ١٩٩٤ .

فقد كنت أقوم بتدريس مادة الثقافة الإسلامية بكلية العلوم بجامعة المنوفية وافتقدت طالبًا متميزًا .. فلم أجده . وبعد المحاضرة .. فوجئت به وجدته فى مسجد الكلية وفى وقت المحاضرة وفي غير وقت الصلاة محمر الأوداج .. عالى الصوت وبين يديه طلاب جدد .. يلقى عليهم محاضرة فى كيفية صلاة التسابيح ؟ وقلت له على الفور : كان المفروض أن تصحب هؤلاء المريدين لتسمع ما كنت أقوله فى قاعة الدرس تعليقًا على آيات كونية فى حاجة إليك الآن .

حتى إذا خرجت غدًا « فى سبيل الله » داعيًا إلى الله فى أوروبا أو أمريكا .. لم تكن قصاراك أن تصرخ فى البرية قائلاً : يا عباد الله : اتقوا الله . بينما عباد الله ليسوا معك .. لأنهم لا يفهمون لغتك ولو فهموها ما استجابوا لها . وإنما هو العلم الذى من بابه يدخلون إلى الإسلام !!

نفثة مصدور !!

وليت شعرى : إننى أكتب هذه السطور وأنباء مذبحة الأقصر تترامى إليّ .. وقلت : ربما كان بين هؤلاء السياح القتلى أمثال : « مريم جميلة » ، أو « محمد أسد » ، وناصر الدين ، مراد هو منان و « جرينيه » هؤلاء الذين أسلموا بعد ما ناصبوا الإسلام العداء .

ثم هبوا للدفاع عن الإسلام عن طريق مؤلفات أحدثت دويًّا هناك . وأسلم بسببها خلق كثير . ثم ماذا لو كان هؤلاء الإرهابيون تجارًا كتجار الهند هناك على نواصى الأقصر . يعرضون مع بضاعتهم حقائق الإسلام .

يحملون البيان القرآنى . وليس السلاح يفتحون به أعينًا عميًا وقلوبًا غلفًا .

ماذا لو جاسوا خلال المعابد باحثين عن أصدقاء من هؤلاء الوافدين يطارحونهم الفكر .. ويبادلونهم الخبرة بدلاً من أن يحملوا السلاح .. يحصدون به الأرواح ؟

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴾ [النساء : ٦٦] .

وليت شعرى .. أخيرًا .. وليس آخرًا ، ماذا جنى الذى هدم المعبد على رأسه ورؤوس الآخرين ؟!!

ماذا أفاد الثور الهائج فى متحف من زجـاج لقد سقط الثور . . يتشحط فى دمه وذهبت عبق الـتاريخ ، ومات ناس ، ربما كان فـيهم مسلمـون أو أوشكوا أن يكونوا مسلمين بالفعل . . فقتلناهم وقتلنا فى أصلابهم نطفًا ربما صارت مسلمين يعبدون الله ويدافعون مثلنا عن الإسلام .

تأملات فى الآيات القرآنية :

(. . . وما تخـرج من ثمرات من أكـمامها) وسـوف نصحب ابن قيـم الجوزية رحمه الله فى كتابه القيم « مفتاح دار السعادة » .

ودورنا ينحصر في :

١ ـ التبسيط والتوضيح .

٢ ـ وإثارة الشهـية لما فى كتـب التراث القديم من وسـائل « جديدة » تأخـذ بيد الحائرين إلى بر السلامة .

يقول ابن قـيم الجوزية : الحكمـة فى إخراج الأقوات والثـمار والفواكه اقـتضت حكمة الله تعالى أن تخرج هذه متتابعة شيئًا بعد شيء . ولـم تخلق جملة .

لماذا التلاحق والتتابع :

١ ـ خلقت أولاً على السوق والأغصان . فرارًا بها من عفونات الأرض .

٢ ـ ولو خلقت جملة فاتت مـصالح كثيرة فالفصول فيهـا الحار والبارد والمعتدل وكل ثمر موافق لفصله تحقيقًا لمصلحة معينة .

٣ ـ وفيها منافع أُخر ، علف الدواب والخشب ، والورق ، والنوْر ، والسقف .

وأدوات الأبنيـة والسفنِ والأوانى والـنَّوَّار: للأدوية ، والمنظر الـبهيج ، الـشاهد بحكمته تعالى ولطفه .

وهذا النـوَّار الرطْب . . والورق الأخـضر كـيف خـرج من هذا الخـشب وهذا الحطب ثم الثمار المتنوعة فى : أشكالها ، وأحجامها ، وألوانها ،وطعومها ،ورائحتها ومنافـعها ، وأصبـاغها ، وجعلـت الشجرة كالأم لـها ، وسخر الشـمس لتنضجـها والرياح لواقح والمطر حياة .

ومن التتابع أن تجيء الفاكهة فى أوانها صيفًا وشتاءً ، ولاحظ أن المتأخر عن موسمه : محلول ، محلول الطعم .

والأشجار تحتاج إلى غذاء ، ولما لم يكن لها أفواه ، ولا حركة جعلت لها أصول تمتص . ثم توزعه حسب الحاجة . كل له شرب معلوم .

دلائل الحضارة :

وللأطناب أوتادها ، كذلك للشجر أطناب التى يصمد بها للعواصف . وكلما امتدت الشجرة طولاً . . كلما عمُقت عروقها . جذورها . وفى كل الجهات . لتبقى تؤتى أكُلها .

والورقة الواحدة لها : عروق ممتدة ، مبثوثة ، وهى غلاظ [طولاً وعرضًا] كأنها الأعصاب الممسكة بها حتى لا تضمحل وبينها دقاق كأنها العروق التى تمد الورقة بالحياة والنضارة .

ولو حاول البشر بما استحدثوا من أساليب صنع ورقة بهذه الدقة لظلوا أعوامًا ثم فشلوا . . وسلموا الأمر لله تعالى .

والورقة : زينة للشجر ، وستر ، ولباس للثمرة ووقاية من الآفات ولو جردت الشجرة من ورقها . . فسدت الثمرة وإذا قطعت الثمرة بقيت الورقة حامية الأفنان الصغيرة حتى تكبر وتستغنى عنها .

النواة :

١ ـ كالعظم يكسوه اللحم . ولولاها لتفسخت الثمرة لِطَرَاوتِها .

٢ ـ ثم النواة لبقاء النوع ففيها مادة الحياة المستمرة ما بقى هذا النوى .

٣ ـ فيها : أدوية وغذاء للحيوان وأصباغ وأدهان .

ثم جعل للثمرة الضعيفة غلافًا يحميها كالرمان والجوز واللوز .

الحبوب :

كالبُر والشعير : الحب له قشور على رؤوسها أمثال الأسنة حماية من الطير . .

الذى عليه أن يأكل قـدر حاجته ويبقى ما يكفى الإنسان الذى زرع وتعب ولو خلت من ذلك لأفسدها الطير .

حمل الأشجار ووضُعها :

سافر بفكرك فى عـجائبها . لترى أنها تحمل .. وتثـمر .. وتقدم لك أولادها زرعًا للآكلين .

وزهوراً للناظرين ثم تمتعك بأنفاسها ودواءً للمرضى . ومع ذلك ﴿ تَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ [الواقعة: ٨٢] كيف ؟

١ ـ يشتغل بالنعمة .. عن المنعم سبحانه .

٢ ـ بل يستعين بها على معاصيه تعالى .

٣ ـ بل يَجْحدها بالمرة !

ولاحظ شجر البطيخ واليَقْطين لَمّا كان ثماراً كباراً .. زحف على الأرض لماذا ؟ لأنه لو انتصب قائمًا : ضعف عن حملها ، ونقصت الثمار عن حجمها وفسدت .

النخلة :

كمثل المؤمن .. ووجه الشبه :

١ ـ ثبات أصلها .

٢ ـ طيب ثمرها .. وحلاوته وعموم نفعه كذلك كلام المؤمن طيب مثلها .

٣ ـ دوام لباسها .. فلا يسقط أبدًا ، كذلك المؤمن لا يزول عنه لباس التقوى .

٤ ـ سهولة تناول ثمرها .. كذلك المؤمن سهل . لا بالغِر ولا باللئم .

٥ ـ ثمرها : طعام وفاكهة ودواء .

٦ ـ أكثر الأشجار صبراً على الرياح والعطش .

٧ ـ كلها منافع .

٨ ـ كلما طال عمرها زاد ثمرها . وجاد أيضًا .

٩ ـ قلبها من أطيب القلوب وأحرها وكذلك قلب المؤمن .

١٠ ـ لو تعطلت منها منفـعة فلم تثمر عامًا مثلاً بقيت فيـها منافع أخرى كذلك

المؤمن ، لا يخلو من خير أبدًا .

لماذا خص الثمرة ... بدل الزهرة ؟

لعله خص الثمرة لأن البرعم البازغ ، ليس هناك فرق كبيرًا بينه وبين ما يحمله من الفروع .

أما الثمرة . . فالفرق هائل بينه وبين الحطب الذى أثمره وهذا دليل على القدرة الإلهية .

ثم إن وجه النعمة فيه أظهر وأشهر .

من أسرار الحمل :

﴿ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴾ [فصلت : ٤٧] .

نظرة على عملية : حمْل الأنثى أو التلقيح : استعدادات الجنين . . أو صفاته تبلغ ٦٠ ألف استعداد وتحمل بويضة الأنثى نصف هذه الاستعدادات البالغة ستين ألفًا تحملها على شكل صفوف عشوائية غير مرتبة .

ومعنى هذا بصورة أخرى : أن الإنسان عبارة عن شفرة عدد أرقامها ستون ألفًا تبدأ بالواحد . . وتنتهى بـ ٦٠ ألفًا .

وإن نصف هذه الأرقام موجود فى بويضة الأم على شكل بطاقات غير مرتبة ولا متسلسلة مؤلفة مثلاً من بطاقة رقم ١ ، ١٣ ، ٢٠٠٠ ، ٤٥٠٠ وهكذا .

ذلك لأن النواحى التى سيشبه فيها الجنين أمه نواح متفرقة ومتشتتة جدًا ، فقد يشبه حاجبه حاجب أمه أما العين فلا ، وقد يشبه شعره شعر أمه ، أما شكل الرأس فلا وهكذا .

ولكى يتم الجنين لابد من ٣٠٠٠٠ بطاقة هى متمركزة فى منىّ الأب ، وهى متفرقة وغير مرتبة كبطاقات الأم أيضًا .

إعجاز : ولنعلم أنه مقابل الخلية الواحدة من الأم وهى (البويضة) يوجد ٢٥٠

(١) بحث للدكتور خلوق نور ـ مجلة البحث الإسلامى ربيع الآخر ١٤١٠ هـ .

مليون خلية فى منى الأب .

وهنا يبدأ الإعجاز : فالبويضة مواجهة بهذا العدد الضخم من خلايا المنى . . وهى مكلَّفة بأن تبحث عن ما يشبه الإبرة فى كومة من القش أستغفر الله . بل أدق وأدق من هذا .

إنها مطالبة بالبحث فى ٣٠ ألف بطاقة فى منىّ الرجل والمنتشرة عن هذه الملايين ثم هى مكلفة بالاهتداء . . وفى ظرف ساعة واحدة إلى الخلية الصحيحة فى هذا العدد الفلكى !!

ويصور العلماء الموقف هكذا توضحيًا : لو كان معك ٣٠ ألف بطاقة ، ثم أعطى لك ٢٥٠ مليون كيس ، وهى عدد الخلايا فى منى الرجل . وطلب منك أن تستخرج من هذه الملايين من الأكياس لتعثر على الأرقام الناقصة ـ الـ ٣٠ ألفًا والتى هى موجودة فى أحد هذه الأكياس ؟

ليس أمامك إلا فتح الأكياس واحدًا واحدًا فى زمان قد يصل إلى شهرين . بل سنوات . ولكن الخلية ـ البويضة ـ تمضى فى ظروف معقدة ولو قام جيش من العلماء والمختبرات لمساعدتها لمضى ألف عام !!

والنتيجة : استحالة الحمل والولادة !! باسم العقل المجرد ! والعلم الحديث يجب عليه أن يقول : آمنت وصدّقت فالله هو الخالق البارئ المصور . . فعملية التلقيح والإخصاب ليست إلا نتيجة طبيعية لكلمة الشهادة كيف ؟

لو لم يكن الله تعالى موجودًا لما حَمَلَت أنثى ، نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله .

وقفة تأمل :

لكننا إلى جانب آية فصلت نقرأ قوله تعالى فى سورة الرعد : ﴿ **اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ (٨)** ﴾ .

نتأمل الآية الكريمة . . ثم نحاول أن نجيب عن هذا التساؤل : فى البخارى ومسلم : أن الملك يعلم ما فى الأرحام فقد وكّل تعالى بالرحم ملكًا لكل مرحلة .

يكتب الرزق ، والعمر ، وشقى أم سعيد وذكر أم أنثى . فكيف إذن نفهم خمسًا لا يعلمهن إلا الله تعالى ومنها : (ما فى الأرحام) . . كيف والملك يعلم ؟

والجواب : ما تغيض الأرحام . . مرحلة لا يعلمها إلا الله تعالى وهى حالة خاصة . . تخصِّص عموم الحديث السابق . وكما أنه تعالى يعلم متى الساعة . . ولا يعلم البشر إلا مبادئها فقط . . نقول هنا : إن الجنين فى الرحم مرحلتين :

١ ـ مرحلة الغيض .

٢ ـ مرحلة الزيادة .

ومرحلة الغيض هى : عندما تدخل النطفة فى جدار الرحم . وينفتح لها الجدار حتى إذا اندمجت . . وشدت حبالها . . بدأت تتخلق . . وتزداد ثم تتخلق . . وعندئذ يعلم الملك . . أى عند الزيادة ، أما الغيض : فقد استأثر الله تعالى بعلمه .

سؤال : قد يخبر مؤمن ملهم بأمر ثم يقع كما أخبر . . وقد يخبر كاهن كذلك بأمر . . ثم يقع .

أما فيما يتعلق بالمؤمن : فإلهامه من الله تعالى . . فهو بمشيئته سبحانه وحده وليس من العبد استقلالاً .

أما الكاهن فعلمه : مجرد تخمين . . بلا يقين .

وقد يزعم الطب أنه وصل إلى الحد الذى يتنبأ فيه بنوعية الجنين ذكرًا أم أنثى .

ونقول : إن الصفات التى سيرثها الجنين عن والديه تبلغ ستين ألفًا من الاستعدادات . فمن هذا الذى يدعى الإحاطة بها علمًا وهى فوق مستوى البشر . . ولا يحيط بها علمًا إلا خالق القوى والقدر ؟

أما بعد : فما أكثر الفوائد التى نجنيها لو ذهبنا إلى القرآن نستلهمه الدروس فقد قرر العلم الحديث :

أنه بين إنشاء العظم واللحم مدة يسيرة جدًا ، ونقول لهم : هذا مفهوم من قوله تعالى : ﴿ **فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا** ﴾ .

فالفاء للترتيب والتعقيب . . ولما كان إنشاء الإنسان خلقًا آخر يأتى متأخرًا آثر

النص حرف العطف « ثم » والتى تشير إلى تراخى الزمن !

الأم بين الحمل والولادة :

روى البخارى أن رجلاً جاء إلى النبى ﷺ فقال : إن امرأتى ولدت غلامًا أسود. فقال النبى ﷺ : « هل لك من إبل » قال : نعم ، قال : « فما ألوانها » قال : حمر ، قال : « هل فيها من أورق ؟ » قال : إن فيها أورق .. ثم قال الرجل : عسى أن يكون نزعه عرق . فقال ﷺ : « وهذا عسى أن يكون نزعه عرق » .

وقول الرسول ﷺ يضع الأساس المتين لعلم الوراثة وهو ما أثبته العلم الحديث. فالصفات تنتقل عبر شجرة العائلة من الأجداد إلى الآباء إلى الأحفاد .. من الصفات الخِلقية والخُلقية .

وقد حاول الفكر الإسلامى الانتفاع بهذا التوجيه النبوى الكريم الحكيم .. وبخاصة عند إرادة الزواج وتكوين عش جديد ..

قال العلماء : (إن من مبادئ الإسلام العامة ما يدعو إليه الطب الحديث من ضرورة إجراء فحص طبى شامل لمن يريد الزواج : الذكر والأنثى على سواء .. لمن لدى أسرهم وأقاربهم نوع من الأمراض الوراثية . حتى يتبين مدى احتمال الإصابة بين المخطوبين إذا هما تزوجا وأنجبا) .

ثم استمرت العناية بهما بعد الزواج وعند تكوّن الجنين .

وفى العصر العباسى والأندلسى : دُربت النساء على التوليد وكن يسمين « بالقوابل »

ومن الأبحاث القيمة فى هذا المجال ما كتبه الدكتور محمود الحاج قاسم فى كتابه (تاريخ طب الأطفال عند العرب) . فقد تطرق الكاتب إلى دور الأطباء المسلمين الأوائل فى العناية بالمرأة الحامل والعلامات الدالة على الولادة وأسباب عسر الولادة والصفات المطلوب توافرها فى المرأة الحامل . وسنهتدى - إن شاء الله - بهذا البحث فى إبراز مجهودات الأطباء المسلمين الأوائل فى مجال الحمل والتوليد . فقد أوصى أحمد بن محمد البلدى فى كتابه (تدبير الحبالى والأطفال والصبيان وحفظ صحتهم

ومداواة الأمراض العارضة لهم . . بأنه لابد أن تتوفر صفات معينة فى المرأة الحامل ومن ذلك انتظام الحيض عندها ، وأن يكون عمرها ما بين ١٥ ـ ٤٠ سنة ، وأن تكون وسطًا بين النحافة والبدانة ، وأن تكون واسعة الحوض والخصر ، وأن تكون كاملة الأنوثة ومعتدلة العقل ، وسليمة الرحم) ولعمرى إن هذه الصفات لا زال أطباؤنا اليوم يعتبرونها ضرورية لكى يتم الحمل والولادة بسلام .

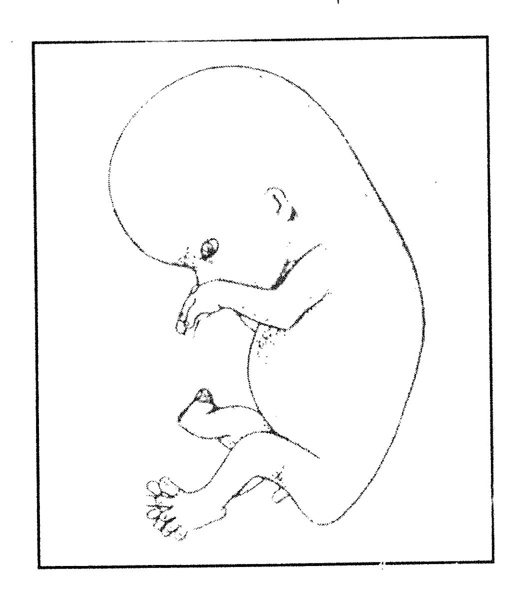
ويصف أحمد بن محمد البلدى أعراض الحمل فى المرأة فى نفس الكتاب ويذكر منها توقف الحيض ، والبصق والقىء ، والخفقان والإغماء أحيانًا ، والألم فى المعدة، وحبَّ الحامل لأشياء غريبة مثل شهوتها لأكل الطين مثلاً وهذه الأعراض نجدها اليوم منسجمة مع طب أمراض النساء والولادة الحديث .

وقد عرف الأطباء المسلمون الأوائل إسقاط الجنين وتحدثوا عن أوصافه فى كتبهم فها هو ذا عريب بن سعد الكاتب القرطبى يذكر أسباب الإسقاط فى كتاب (خَلْق الجنين وتدبير الحبالى والمولدين) بقوله : (أسباب الإسقاط كثيرة فربما كان من امتلاء أو من جزع أو من ضعف الرحم ورباطها أو من شىء لزج ثبت فى الرحم فَيَعرضُ منه زلق النطفة) . واستطاع عُريب القرطبى أن يتوصل إلى الطرق العلاجية والوقائية من الإسقاط .

كما اعتنى أسلافنا من أطباء الإسلام بالمرأة الحامل ، وأوصوا بالمحافظة على صحتها وسلامة الجنين . فقد نصح أحمد بن محمد البلدى المرأة الحامل بالرياضة والحركة المعتدلة ، والعناية بالغذاء المتكامل من ناحية الكمية والنوعية ، والحرصِ على الاستحمام بالماء العذب المعتدل الحرارة ، وطلب منها أن تبتعد عن الجماع بقدر الإمكان خاصة قبل الشهر الرابع وبعد الشهر السادس من الحمل . أما أبو على بن سينا فيأمر بعلاج الإمساك عند الحامل بالملينات الخفيفة بدلاً عن المسهلات القوية . ونصح أبو بكر الرازى بعدم فصد الحامل أثناء حملها . أما أبو الحسن بن هبل البغدادى فيؤكد فى كتاب (المختارات فى الطب) ما جاء به ابن سينا والرازى حيث قال : (وإنْ عَرَض للحامل مرض عولجت برفق وتوقف الفصد والإسهال) . ويصل عريب القرطبى إلى التوصية بمنع المرأة الحامل من الجوع والصيام لكى لا يتأثر الجنين.

واستطاع أطباؤنا المسلمون الأوائل التعرف على الأعراض والعلامات التى تدل على قرب الوضع والولادة . وذكر أحمد بن محمد البلدى منها كمال شهور ومدة الحملِ ، ونزولَ الجنين إلى أسفل الحوض ، وسيلانَ بعض الدم والماء من المِهبل ، وشعورَ الحامل بالثقل في المعدة والحوض . وتطَرَّقَ البَلَدى أيضًا إلى ما يمكن عمله من جانب الحامل والقابلة لتسهيل عملية الولادة . ونجد أن هذه المعلومات الطبية لا زال يتداولها أطباء العصر الحديث ويطبقونها فى مهنتهم .

ويستمر أحمد بن محمد البلدى فى إمدادنا بالمزيد عن الطب النسوى . فيذكرُ لنا أن أسباب عسر الولادة قد ترجع إلى الحامل نفسها . كأن تكون بدينة جدًا أو ذات رحم صغير ، أو ابتلاها الله تعالى بورم فى رحمها ، أو بمرض أعاقها عن مهمتها ، أو كانت جبانة وفزعة من عملية التوليد ، أو كانت المرة الأولى فى الحمل . وهناك أسباب متعلقة بالجنين ، ولها دور فى عسر الولادة . ومن ذلك كبر حجم الجنين أو كبر رأسه أو عظمه ، أو كان مشوهًا أو ميتًا أو كان هناك أكثر من جنين فى الرحم ، أو كان ذا حركة ضعيفة . وأحيانًا تكون أسباب عسر الولادة ناتجة عن شذوذ فى وضع الجنين عند الولادة مثل انقلابه على رأسه أو رجليه أولاً وهكذا . وتطرق البلدى إلى الطرق العملية التى يمكن بها علاج هذه الحالات الشاذة . ولو تمعَّنا فى كل هذا الأسباب التى أوردها البلدى قبل مئات السنين لنجد أنها لا تخرج كثيرًا عن الأسباب التى ذكرها طبنا الحديث اليوم .



والأطباء المسلمون الأوائل وصفوا التشوهات الخلقية التى تحدث فى الأطفال نتيجة لعوامل الوراثة . ونجد فى كتبهم وصفًا للتوأمين الملتصقين والطفل الذي يولد برأسين ، والتوأمين اللذين يولدان برجلين بدلاً من أربع ، والطفل الذى يولد أعمى أو أعرج ، أو بستِّ أصابع فى اليد أو القدم ، أو يولد مشلولاً وغير ذلك من التشوهات الخلقية العديدة . وأفضل من كتب فى هذا الأمر عُريب القرطبى وعلىّ بن سهل الطبرى وابن سينا وأحمد بن محمد الطبرى . ويقول الدكتور محمود الحاج قاسم : (إن ابن سينا أرجع أسباب التشوهات الخلقية عند الأطفال إلى إصابات الولادة غير الطبيعية ، والتغيرات التى تحدث فى الرحم ، أو فى غذاء الأم الحامل أو فى منىّ الرجل .

الحكمة الإلهية وراء عدة المرأة :

العدة هى المدة التى تنتظرها المرأة وتمتنع عن التزويج بعد وفاة زوجها أو طلاقها منه . وقد كانت معروفة للعرب منذ أيام الجاهلية .

يقول الله تعالى فى سورة البقرة : ﴿ **وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ...** ﴾ ويقول سبحانه فى سورة البقرة أيضًا : ﴿ **وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ ...** ﴾ وجاء فى سورة الأحزاب قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ...** ﴾ وفى سورة الطلاق يقول الله جل جلاله : ﴿ **وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُوْلاتُ الأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ...** ﴾ . ويقول الله تعالى أيضًا فى سورة البقرة : ﴿ **لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٢٦)** ﴾ .

ويتضح من هذه الآيات الكريمة أن للعدة أربعة أنواع :

عدة الحائض (ثلاثُ حيَض) وعدة اليأس (ثلاثة أشهر) ، وعدة المتوفى عنها زوجها (أربعة أشهر وعشرًا) ، وعدة الحامل (حتى تضع حملها) . ويذكر الشيخ سيد سابق فى كتاب (فقه السنة) أن الحكمة الشرعية من العدة بصفة عامة هى معرفة

براءة الرحم حتى لا تختلط الأنساب ، وتهيئةُ الفرصة للزوجين لإعادة الحياة الزوجية بعد الطلاق ، والتنويه بأهمية النكاح ، وأهمية المصالح التى تأتى منه .

وقد نشر فى مجلة الفيصل الطبية (١٤٠٥ هـ) مقال بعنوان (تأملات فى العدة والحمل) تطرق فيها الكاتب إلى النواحى الطبية والعلمية وراء العدة ومما جاء في المقال (إن الاختلاف بين أنواع العدة يرجع إلى التأكد من عدم حدوث حملٍ وبراءةُ رحم المرأة قبل أن ترتبط بزوج آخر ، ومن ناحية حسابية لهذه الشهور ثبت علميًا فى الطب الحديث أن المدة التى ذكرها القرآن الكريم هى فعلاً المدة اللازمة لبراءة الرحم . وهذا يدل على دقة كتاب الله سبحانه وتعالى . وأن وراء كل كلمة فيه حكمةً بالغةً وحقيقةً علمية) .

الوراثة والتشوهات الخلقية :

يقول الحق جل جلاله فى سورة النساء : ﴿ **حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ ...** ﴾ وفى هذا نهى صريح عن نكاح الأقارب المحرمات . ويفسر الدكتور عبد الحميد دياب وأحمد قرقوز السر وراء منع زواج الأقارب علميًا فى كتابهما (مع الطب فى القرآن الكريم) . حيث يذكران أن فى ذلك إظهار للأمراض الكامنة فى العائلة ، واستمرارها فى الأسرة بدلاً عن تشتتها وتفريقها بعيدًا عن العائلة . وفى نفس الوقت يؤدى زواج الأقارب إلى تقليل النسل وإلى العقم وإلى التسمم فى النسل . وكثيرًا ما نلاحظ الأمراض الخلقية والتشوهات بين الأسر التى تحرص على الزواج من أقاربها ، ومن ذلك الصمم والبكم والعمى ، وقد تبين أن مثل هذه الأمراض تكثر بين اليهود لأنهم يحرصون على عدم الاختلاط بغيرهم .

والأحاديث النبوية الشريفة أيضًا توصى بالبعد عن الزواج بالأقارب ، وفى ذلك إشارة واضحة لأمراض الوراثة . روى ابن ماجه فى السنن أن رسول الله ﷺ قال : «تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس » . ويعنى ذلك فيما يعنى الابتعاد عن الزواج بالأقارب حتى لا يضعف النسل ، وجاء الطب الحديث ليقرر أن زواج الأقارب يزيد من فرصة الإصابة بالأمراض المتخفية مثل الهيموفيليا والتخلف العقلى والبول السكرى

وارتفاع ضغط الدم والصرع والأمراض النفسية والعقلية وغيرها . وبذلك يكون الرسول ﷺ قد وضع الأسس الأولى لعلم الوراثة .

ولا تضع إلا بعلمه :

لاحظ أسلوب القصر : بعد العثور ـ عثور البويضة ـ على الخلية الذكرية . . أى بعد عملة التلقيح . لابد أن تتحول الخلية إلى طفل له ملامحه ، تبدأ الخلية بالانقسام وبالتكاثر بأشكال هندسية متوالية هكذا : ٢ ـ ٤ ـ ٨ ـ ١٦ ـ ٣٢ ـ ٦٤ . . إلخ ، ويستمر الانقسام حتى يتكون الطفل الذى يبلغ عدد خلاياه ٣٠ مليون خلية .

فعندما يبلغ عدد الخلايا ٢٥٦ خلية مثلاً يجب أن يتعين مكانٌ للون رموش العين ولشكل الأذن ضمن هذه الخلايا البالغ عددها (٢٥٦) خلية إذ توجد قابلية نشوء جلد اللسان وجلد الكلية معًا فى الخلية رقم (٢٢١) مثلاً . أى : هما موجودتان جنبًا لجنب . ولو حدث خطأ مقداره جزء من عشرة ملايين جزء من السنتيمتر الواحد لنشأت ونمت غدة البول على لسان الإنسان ، أو لنما اللسان فى بطن الإنسان (فى كليته) إن درجة الاحتمالية موجودة ، ثم يا ترى أية هيئة علمية تستطيع أن تُصدر الأمر بالوضع بعد اكتمال مدة الحمل البالغة (٤٠) أسبوعًا ؟ وأن تُعلِم وتُخبِرَ الغدة النخامية (Hypophysis) للأم بأن نمو الطفل قد اكتمل من الناحية البيولوجية ؟ وأى مختبرِ بحثٍ أخْبَرَ نسيج الغدة النخامية . إن جميع أعضاء الطفل أصبحت كاملة لذا يجب صدور الأمر بالوضع ؟ . . طبعًا إن العلم الإلهى هو الذى أخبر .

إن الحالات النادرة التى تحدث فى الحمل والوضع . كالوضع المبكر أو عدم اكتمال أعضاء الطفل المولود . أو عدم استمرار الحمل مع حدوث الحمل . . هذه الحالات النادرة التى تتكرر على الدوام ليست إلا تنبيهًا لابن آدم ولفتًا لنظره إلى هذا الإعجاز البيولوجى .

الوضع :

﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل : ٧٨] .

فالله تعالى هو الذى أخرجكم . . . وليس الطبيب ولكن الرحم - بقدرة الله تعالى - هو الذى ينقبض ليَخْرج الوليد .

وجعل لكم السمع . . (يسمع أولاً) ، وبعد أسبوعين : يرى ، وبعد سنوات يعقل ، إنها نعم . . . يجب أن تشكرها بحسن استعمالها فيما خلقت له .

يخرج الوليد . . فتنصب على عينيه أشعة الشمس . . فتؤلم وتتجه إلى أذنه موجات صخب لا تطيقها طبلة أذنه والهواء البارد يلفح جسده الغض . . بعد أن كان فى الحصن الدافئ .

ولكن . . من رحمة الله أن يصل إلى الصوت همسًا والضوء إشعاعًا خافتًا . وربما جاز لنا أن نقول : إن الملاح عابر القارات يدرب فى المحيط الثائر وكذا الوليد المرشح لرحلة العمر لابد لا من طروف قاسية حتى يشب يافعًا .

تعقيب :

قرأت ما نشر أخيراً فى جريدة الجمهورية الغراء ، من أن بعض الجاحدين فى الغرب ، يعيب على الإسلام ، كذبًا وبهتانًا ، أنه يعارض العلم الكونى الحديث وأن بعض الاتجاهات هنا ، تريد أن تفصل العلم عن الإسلام ، قرأت هذا وذاك ، فأحببت أن أسهم بسهمى فى ذلك ، فأدافع عن هذه الشمس الساطعة وذلك النهار المشرق ، وأقدم بالأدلة القاطعة ، المبنية على البديهة والتجربة ، ولا يستطيع أن يقف أمامها جدل ، إن الإسلام لا يقف من العلم الحديث موقف المشجع فقط ، وإنما يقف منه موقف الأستاذية ، بما يقدم من معلومات وقواعد عامة للكون كله ، هذه القواعد تنير للباحث طريق بحثه ، وتهدى المخترع إلى اختراعه وأن ذلك ليس استنباطًا عابرًا وإنما هو حتمى للإسلام ، وثابت فيه ثبوت النبوة نفسها .

وإنى أفضل أن أقدم هذ المعلومات معنصرة كما يلى :

١ - لا نبوة بعد وفاة الرسول ﷺ إلى قيام الساعة .

٢ - فيلزم أن تكون معجزة القرآن خالدة إلى قيام الساعة كذلك ، وتقوم مقام رسول الله ﷺ تمامًا .

٣ ـ المعجزات الإلهية فى كل عصر تتحدى ناحية التقدم فى ذلك العصر ، وتعجزها فموسى عليه السلام ، تحدى السحر فى عهده وأعجزه ، وعيسى عليه السلام أيضًا تحدى الطب فى عهده كذلك وأعجزه .

٤ ـ وعلى هذا ، فلابد أن تكون فى القرآن نواح للإعجاز ، لمختلف النهضات والحضارات على توالى العصور إلى قيام الساعة ، فإذا وجدت نهضة بلاغية أعجزها بتفوقه عليها وإذا وجدت نهضة تشريعية كان فى القرآن عليها وإذا وجدت نهضة علمية اختراعية أعجزها القرآن كذلك بما يأتى به من معلومات لا يستطيع أن يصل إليها بشر .

٥ ـ وقد وجدت أن الإعجاز العلمى فى القرآن ، قسمان :

أ ـ معلومات خاصة .

ب ـ معلومات عامة للكون كله .

مثال للقسم الأول « المعلومات الخاصة » :

وقد أحببت أن أختار مثالاً لآخر ما وصل إليه الإنسان من تقدم ، وهو غزو الفضاء وذلك في قوله تعالى : ﴿ **فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ** ﴾ [الأنعام: ٥] فالآية الكريمة تخبرنا أن الكافر صدره ضيق حرج نحو النور الإلهى ، كضيقه الذى يحصل له عندما يستمر فى الصعود إلى السماء . . ولم يكن معروفًا فى عصر رسول الله ﷺ أن الذى يصعد إلى الأجواء العليا ، يضيق صدره أولاً ، لقلة الأوكسجين فإذا استمر فى الصعود ، فإن هذا الضيق يبلغ مبلغ الحرج والاختناق الذى ينتهى به إلى الموت لانعدام الأكسجين ، وفى تعبيره تعالى بـ « **يصعد** » إشارة دقيقة إلى أن الصعود والضيق ، يزيدان شيئًا فشيئًا كما تفيد صيغة « تفعل » مما لا تتسع الإطالة فيه في هذا المقام .

لم تكن هذه المعلومات معروفة فى عهد رسول الله ﷺ إطلاقًا ، وإنما عرفت فى عهدنا هذا ، بعد اختراع الطائرات والصواريخ ، فهى إذن معلومات لا يمكن أن يأتى

بها رسول الله ﷺ إلا عن طريق هذه النبوة التى أعلنها ونادى بها .

مثال للقسم الثانى : « القواعد العامة للكون كله » ، « سنن الله الكونية » :

قانـون الزوجين قال تعـالى : ﴿ **وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** ﴾ [الذاريات: ٤٩] فقد بين الـله تعالى فى هذه الآية الكريمة أن الكون كـله أزواج بما فيه من نبات وحيوان وجماد ، ولـنتأمل فى قوله تعالى : ﴿ **مِن كُلِّ شَيْءٍ** ﴾ فـإن هذا تعميم ما بعده تعميم ، فما عرفناه وانكشف لنا من هذه الزوجية فقد تبين لنا ، وما لم نعرفه فلنبحث عنه ولا ننكره ، تحقيقًا لقوله تعالى : ﴿ **سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ** ﴾ [يس : ٣٦] .

وقد تبينت الزوجية ، فى عصرنا هذا فى المغـناطيسية والكهربائية ، وفى تركيب الذرة ، ولم تكن معروفة كذلك فى عصر رسول الله ﷺ ، ثم إنه قد هدانى الله إلى بيانها فـى تكوين الشعر العربى ، وأن بحـوره متركبة بقانون الـزوجين وليس بالدوائر الخمس المعروفة ، وأن ذلك ليس إلا طرفًا من السلم الموسيقى .

مثال آخر لسنن الله الكونية :

الطواف حول الكعبـة : فقد تبين لى أنه يعتبر رمزًا لـلدوران والانتقال فى الكون كله . وذلك لأن الطائـف يجعل البيت عن يـساره ، ثم يتجه إلى الأمـام دائرًا حول البيت .

يقوم الطائف بهذه العبادة ، فأين تتجه هذه العبادة بعد فعلها ؟ تخبرنا آية أخرى بهذا الاتجـاه ، فى قوله تـعالى : ﴿ **إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ** ﴾ [فاطر: ١٠] فتيار الـعمل النورانى يتجه من الأرض إلى السمـاء ، أى من جهة قدمى ذلك الشخص الطائف إلى جـهة رأسه ، فالكعبة المشرفة تمثل السـلك الحامل للتيار ، والمؤمنون يسبـحون فى مجالها أى إنهـم صاعدون بأرواحهم إلى أعلى ، كـما تسبح الأقطاب المغناطيسية فى المجال الكهربائى .

وإذا تأملنا فى كـل النباتات المتسلقـة نجدها جميعًـا ، تنتقل حول حواملـها بهذه الهيئة تمامًا ، فالورقة تدور حول حاملهـا ، فى اتجاه وجهها ، ويسارها إلى حاملها ،

وهو مركز الدوران ، وتدور هكذا دورانًا يمينا ، كالطائف تمامًا متجه إلى أعلى .

والله إنا لنقف مبهورين مأخوذين لأمرين :

١ ـ الاطراد العجيب فى كل النباتات المتسلقة ، على هذا الوضع .

٢ ـ موافقة الطواف حول الكعبة لذلك ، فالله مبدع هذا الكون وخالقه ؟!

من رسم ذلك لكل النباتات المتسلقة ؟! ومن علم الطائف حول الكعبة هذه الطريقة نفسها ؟! إنه سبحانه وتعالى ، خالق هذا ومشرع ذاك ، إنه فاطر السموات والأرض الذى قال فى قرآنه : ﴿ **قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾ [الفرقان : ٦]

أما بعد : العلم اليوم .

ولكن ماذا يقول مثقفو اليوم ؟؟!

يقول الأستاذ أنيس منصور : فى ابريل سنة ١٩٦١م كان الضابط الروسى جاجارين أول إنسان يدور حول الأرض . حدث علمى جليل . وهذا الضابط الصغير الماركسى أعلن للعالم أنه لم يجد الله في الفضاء .

عبيط وساذج وجاهل . فنحن لا نحتاج إلى أن يدور حول الأرض ؛ لنعرف إن كان الله موجودًا ؛ لأنه ليس فوق ولا تحت وإنما في كل شيء .. فى الذرة والمجرة في الخلية الحية التى هى مصنع ضئيل جدًا .. مصنع ومحطة توليد قوى ؛ وميدان ملىء بالحركة والحيوية ، وليس فى الذرة ، بل في جزء من ألف مليون من هذه الذرة .

والنظر فى ذرة أروع من النظر إلى السماء .. فالكون الذي فوقنا متواضع جدًا إذا قورن بالكون الموجود فينا .. أى ملايين ملايين من الخلايا المتنوعة الأشكال والألوان والأحجام .. بل إن الحيوان المنوى هو معجزة الخلق .. فهو يضم كل صفات النوع الإنسانى وكل صفات الأبوين وعاداتهما فى الأكل والشرب والنوم وملامح الأنف وبحة الصوت ووضع الساق على الساق ، كيف يحتفظ هذا الحيوان بكل ذلك رغم ضآلته ..

وفى عالم النبات والحيوان معجزات يركع لها العقل ويسجد ـ فما أعظمك يارب! .

وما أعجزنا عن الاقتراب من حكمتك ! ولا أقول الإحاطة بها ، فكيف تحتوى أصابع تشير إليه بالسماء ؟ وكيف يحيط عقل بما هو فوق كل عقل ؟ ورغم أننا ضعاف فإننا نحن الكائنات الوحيدة التى تعترف بذلك . ورغم معرفتها بعجزها فإنها لا تكف عن ابتكار أدوات لمزيد من المعرفة وكل شيء يؤكد حقيقة واحدة عظمة الله .

ثم يقول : أناس طيبون تصوروا أن ظهور كلمة (الله) على شجرة معجزة بل الشجرة هى المعجزة . ورقة الشجرة هي المعجزة . جناح الذبابة التى فوق ورقة الشجرة هو المعجزة . بل البكتريا فى واحد على مليون من جناح الذبابة هى المعجزة وليس الله ـ سبحانه وتعالى ـ فى حاجة إلى أن نكتب اسمه على أى شيء فأى شيء هو معجزة تدل على أن الخالق المبدع الذى لا حدود لعظمته القرآن يقول : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا** ﴾ [البقرة:٢٦] .

وكان الفيلسوف الألمانى العظيم « كانت » يقول : إن الكون فوقى وصوت الضمير فى داخلى أكبر دليل على عظمة الله .

وكان أستاذنا العقاد يقول : بل معجزة الخلق كله . الحيوان المنوى . وكيف أن هذا الكائن الصغير جدًا يحمل صفات الأبوين . . ليست الصفات فقط ، بل العادات والسلوكيات ، فطفل لم ير والده ، وينام على جانب من الجسم ويأكل ويضحك ويغضب تمامًا كوالده الذى لم يره . ليس هذا فقط بل كيف يستطيع هذا الحيوان الضئيل أن يحتفظ بكل صفات الجنس البشرى ويخلط ويختار من صفات الأبوين أو صفات الأسرة كلها . هذه هى المعجزة !

إن الإنسان ـ أنت وأنا ـ كنز من المعجزات . اسأل أى طبيب ليس شاعرًا ، وهو يقول لك : عن العين والأذن والقلب والمعدة والكبد . . وعن المخ هذه المادة الرمادية الصغيرة الحجم كيف يدرك ويفكر ويدبر ويبدع كيف ؟

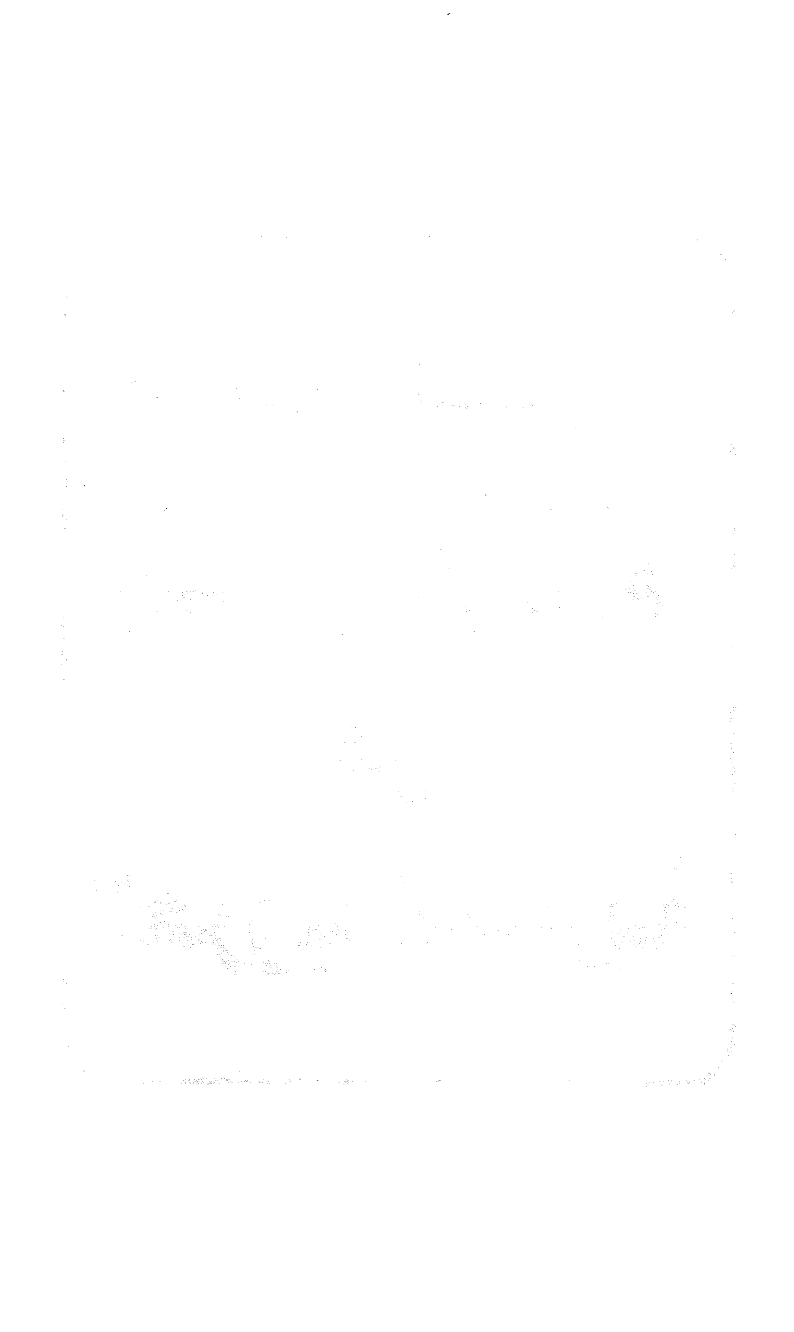
إن الإنسان قد استطاع الكثير ولكنه بعلمه وقدرته لم يقض على الميكروبات ، وهى كائنات ضئيلة . قال لي رائد فضاء أمريكى ونحن نناقشه أنا و ـ د . فاروق الباز : إن الذى يرى جناح بعوضة تحت الميكرسكوب يرى إعجازًا وإبداعًا إذا قارنا

بينه وبين أجنحة الطائرات العادية . . سوف تجد أن طائراتنا (لعب عيال) .

والرجل الصوفى الذى قال : لا إله إلا الله ، مـا فى الجبة إلا الله . قالوا : إنه كافر ، بل هذه أعلى درجـات الإيمان فأنت وأنا جزء ضئيل من عظـمة الله وقدرته . آمنت بالله .

الفصل الثالث

إنسانية الإسلام في الحروب العسكرية



الفصل الثالث
إنسانية الإسلام
فى الحروب العسكرية

مـدخل : ربما كانت هناك اليوم بعض الممارسات الخـاطئة وعلى الجبهة العسكرية بالذات .

وإذ يحاول أعداء الإسلام اتهامه بالقسوة التى تبدو من خلال هذه الممارسات .. فإننا مطـالبون بالعود الحمـيد إلى بعض المواقف على الجـبهة العسكرية الإسـلامية . وسنرى إلى أى حد كان الإسلام يفتح القلوب بـالحب .. وليس من غايته فتح البلاد بالحرب !

وذلك ما نحاوله عبر هذه الصفحات .. راغـبين توضيح القضية على نحو يفرق فيـه العاقل المسـترشد بين الإسـلام كدين .. وبين سـلوك بعض قواده الـيوم .. مما ذكرناه آنفًا .

انتصاراتنا فى رمضان

عندما نـتأمل حال المسلمـين اليوم .. وهم يستـقبلون رمضـان ... يرتد إليك البصر خاسئًا وهو حسير .

فالمسلمون يتـنافسون بين يديه فى ادخار ما لذ وطاب من أفـانين الطعام والشراب تغذيه للأجسام بما يحيط فيها حكمة الصوم .. ثم يكون الكسل .. ورفض العمل ؟

مع أن رمضان في تاريخنـا كان شهر الحركة .. بل شهر القـتال الذى توّجه الله تعالى بالنصر المبين .. والذى حققه عز وجل بأيدى المؤمنين الذين خاضوا فى رمضان معارك ضارية :

- غزوة بدر الكبرى .
- فتح مكة .
- موقعة القادسية .
- فتح جزيرة رودُس .
- فتح جنوب الأندلس .
- عين جالوت .

ثم كان العاشر من رمضان ! والتى كانت حجة أقامها الله تعالى على الأمة لتعلم أنها قادرة بالإيمان ... أن تفرض احترامها على أعدائها ، وسوف نشير ... إشارات عابرة إلى بعض هذه المعارك تبصرة وذكرى .

اليوم نشمُّ عـبق السيرة النبـوية : مجددين بالتـذكار أعمارنا . مزكّين أعـمالنا ، حين نبحر فى العمق .. عبر مرحلة مـن مراحل حياتنا ... حافلة بالأحداث العظام والأحاديث العذاب . قديم ... يتجدد ، وأصيل يتنامى .

وإذا انصرمت أيامـنا ، وتصرمت ليالينا .. فـأفلتت من أيدينا .. فلا نـستطيع ردها .. فإننا نعود نحن إليـها وهو ما نستطيع أن نخطفه من قبضـة الزمان ليرسو بنا السفـين على ضفاف مـوقف من تاريخنـا المجيد ، لنسـتمع إلى أكـثر من درس .. وتستمتع بأكثر من فكرة أو رأى .. فى عملية فى تجوّل حر .. وتلك ميزته .

قبل بدر

كانت هناك : مجموعة من السرايا كان من أهم أهدافها :

١ ـ إرهاب العدو .

٢ ـ تربية إرادة القتال فى ضمير الأمة .

٣ ـ هناك قاعدة عسكرية تقول : إذا انتصر عدوك . . فلا تترك له الميدان خاليًا .

تشكيل هذه السرايا :

أ ـ يلاحظ أن أكثر قواد هذه السرايا كانوا من البيت النبوى (حمزة عمه ، سعد ابن أبي وقاص خاله) .

ب ـ كان الجنود من المهاجرين ـ ثم كان تحويل القبلة ثم فرض الصوم .

(بالتعبير العصرى كانت فترة استنزاف طاقات العدو وإعداد الأمة لمثابرة الأعداء).

١ ـ بالسرايا .

٢ ـ تحويل القبلة « صارت للأمة الإسلامية شخصيتها المستقلة » .

٣ ـ وبالصيام الذى كان مدرسة لتربية الإرادة .

تمهيد :

ظلت البطولة « فكرة » إلى أن يوجد لها رجال وفى بدر : وجد هؤلاء الرجال فى غزوة لم تكن فقط مواجهة عسكرية بقدر ما كانت المواجهة لتربية الأمة بالأحداث . . . وليس فقط بالأحاديث .

التمزق على الجبهة المعادية :

ولقد كان هناك تمزق على الجبهة المعادية . . وكان من صوره : ما حلّ بأبى لهب من رعب فرض عليه أن ينيب غيره عنه ليقاتل فى بدر . . لدين كان عليه .

ثم ما كان من تردد أمية بن خلف .

فلما علم أنهم ينحرون يومًا تسعًا ويومًا عشرًا قال ﷺ : « القوم ما بين التسعمائة إلى الألف » فلما سألهما عمن حضر من الأشراف عدّ له البعض ، فقال ﷺ : « هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ أكبادها » .

قال ذلك تحريضًا للمسلمين على القتال .

إرادة القتال :

١ ـ تنافس الصبيان :بل تنافس الوالد مع ولده .. وعدم تنازل الولد لوالده إذا فاز بالترشيح للجهاد دون والده .

٢ ـ كان كل ثلاثة من المسلمين يتعاقبون على بعير واحد ، حتى عرض رفيق الرسول ﷺ أن يهب له حقه فى الركوب .. فقال لرفيقه :ما أنتما بأقوى منى على المشى ولا بأحوج إلى الثواب منى .

من أخلاق رفاق السلاح :

كتب أبو بكر رضي الله عنه إلى أبى عبيدة : فقال : « بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله بن عتيق بن أبى قحافة إلى : أبى عبيدة بن الجراح سلام الله عليكم .

أما بعد :

فقد وليت خالدًا قتال العدو فى الشام . فلا تخالف . واسمع له وأطع ، فإنى وليته عليك ، وأنا أعلم أنك خير منه . ولكننى ظننت أن له فطنة فى الحرب . ليست لك . أراد الله بنا وبك سبيل الرشاد » .

موقف القائد الجديد « خالد » :

ونظرًا لحرج موقف أبى عبيدة .. يسارع خالد رضي الله عنه . فيرفع عنه هذا الحرج .. بهذا الخطاب الإنسانى :

بسم الله الرحمن الرحيم : من خالد بن الوليد إلى أبى عبيدة بن الجراح ، سلام الله عليك .

أما بعد :

فقد أتانى كتاب خليفة رسول الله ﷺ . يأمرنى بالسير إلى الشام والقيام على

جندها . والتولى لأمرها .

والله ما طلبت ذلك قط ، ولا أردته إذ وُليته . فأنت على حالك الذى كنت عليه . لا نعصيك ولا نخالفك . ولا نقطع دونك أمرًا ، فأنت سيد المسلمين ، لا ننكر فضلك ، ولا نستغني عن رأيك .

وكان ذلك سبب تأخير رد أبى عبيدة على الخليفة ولما استبطأ الخليفة هذا الرد أرسل خطابًا آخر شديد اللهجة فحواه :

١ ـ أن يقرأ خطاب العزل والتكليف علانية .

٢ ـ يُعتقل خالد بعمامته .

٣ ـ ثم يسأل عن بعض ما يملك .

وقام « بلال » فاعتقله بعمامته : جندى عادى . . يقيد قائد الجيش !!

عودة ابن الجراح :

ولما ولى الخلافة عمر رضي الله عنه كتب هذا الخطاب :

بسم الله الرحمن الرحيم :

« من عبد الله عمر بن الخطاب إلى أبى عبيدة بن الجراح أوصيك بتقوى الله الذى يَبْقى ولا يبقى سواه ، الذى هدانا من الضلالة وأخرجنا من الظلمات إلى النور . وقد استعملتك على جند خالد بن الوليد فقم بأمرهم بالحق الذى عليك . ولا تُقْدِم المسلمين إلى هلكة رجاء غنيمة ، أو تنزلهم منزلاً قبل أن تسترده لهم وتعلم كيف مأتاه . . وإياك وإلقاء المسلمين فى الهلكة ، وقد ابتلاك الله بى ، وابتلانى بك فغض بصرك عن الدنيا ، وألْهِ قلبك عنها ، وإياك أن تهلك كما هلك من كان قبلك فقد رأيت مصرعهم » .

عمر رضي الله عنه ينصف القائد خالدًا قائلاً : ما عزلته لخيانة ! ولكنه خاف من الفتنة فتنة الناس به !!

موقف أبى عبيدة :

أخفى أبو عبيدة رضي الله عنه تأميره . حتى انتهت المعركة . وبعد عشرين يومًا . .

ودخل عليه القائد « المخلوع » خالد رضي الله عنه قائلاً : يغفر الله لك !

جاء كتاب أمير المؤمنين . فلم تُعلمني . وأنت تصلي خلفي . والسلطان سلطانك ؟!

فقال له « أبو عبيدة » :يغفر الله لك ! ما سلطان الدنيا أريد . . وما للدنيا أعمل . وأن ما ترى سيصير إلى زوال . وإنما نحن أخوان .

سبب إسلام « جارودى » :

كان جارودى جنديًا فى معركة مع المسلمين . . وحدث أن وقع أسيرًا فى يد جندى جزائرى ، وعلى غير ما كان يتوقع . .سمع الجندى الجزائرى يقول له : أنا مسلم ، وإسلامى يمنعنى من قتلك ، فاذهب بعيدًا . . حيث شئت ، ولا أراك من بعد .

وأدار جارودى ما حدث في عقله . . ثم عرضه على قلبه الشاعر الحساس . فأسلم وجهه لله .

من أساسيات الإسلام :

١ ـ الشورى .

٢ ـ المشاركة فى إتخاذ القرار .

٣ ـ وبخاصة فى القضايا المصيرية إلى جانب العصب الحساس لكل ما سبق وهو :

أ ـ العدل .

ب ـ المساواة .

جـ ـ طاعة ولى الأمر .

د ـ تعاون كل أجزاء المؤسسة . « ومثل المسلمين في توادهم » .

مهمة الجندى المسلم ليست هى أن يقتله ، ولكنها بالدرجة الأولى : محاولة هدايته . . بكسر حاجز الخوف حتى تمضى الحقيقة إلى قراره .

إن الهدم . . إن التصفية الجسدية أمر متاح وإنما البناء هو الغاية الأصعب .

إنه الدين الذى يحملنا على أن نهب أنفسنا للمثل الأعلى ، وليس هوى يخضع الحياة لحاجات أنفسنا .

بعد المعركة .. معاملة الأسرى :

كان العباس ـ بعد غزوة بدر ـ فى الأسارى .. ولما سمع ﷺ أنين عمه فى القيد لم ينم تلك الليلة !! فلما قال له أصحابه مالك لا تنام يا رسول الله ؟ قال : سمعت أنين عمى العباس فى وثاقه ، فأطْلَقُوه ، فسكت .. فنام ﷺ .

ومع هذا فقد أبى إعفاءه من الفداء كغيره من الأسارى !! يدفع الفداء عن نفسه وعن ابنى أخويه عقيل بن أبى طالب ، ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب ،وكذا عن حليف له !

ولما قال العباس عندئذ : إنه كان قد أسلم ليتخلص من الفداء قال له ﷺ : أما ظاهرك .. فكان علينا ،والله أعلم . بإسلامك ، ويجازيك ؛ وتدخل بعض الأنصار فقالوا : أئذن لنا فلنترك لابن أختنا العباس فداءه .. فقال ﷺ : « لا والله لا تذرون له درهمًا !! » .

ولقد كانت التوجيهات النبوية مشددة بحسن معاملة الأسير .. إلى الحد الذى أمروا فيه بإعطائهم « الخبز » وكان أغلى ما يقدم إليهم عندئذ .

وهكذا يأمر الإسلام بالتعاطف مع « الأسير » كمحاولة .. من خلالها يتسع قلب المسلم حتى يحب عدوه !! وتبدو صورة « العفو » فى أسمى معانيه .

أما بعد : فلابد من عقل يفكر ، وإدارة تنظم ، وإرادة تنفذ ، وكل ذلك كان من خلائقه ﷺ ولقد أصبح فن الإدارة من أهم العلوم وبخاصة على الجبهة العسكرية.. إلى الحد الذى يؤكد ما يلى : لو وجدت الإمكانات البشرية والمادية ثم لم توجد الإدارة الناجحة لضاعت هذه الإمكانات سوى ذلك ، بأن الإدارة المنظمة التى توظف هذه الإمكانات لتحقيق الهدف الأكبر .

من معانى فتح مكة :

الدين الطالع فى ليل الوثنية الذى أرخى سدوله ينتصر .. أجل . انتصر الإيمان البازغ .. الفجر الصادق .. والذى كان في طور التكوين .

انتصر وبجدارة على الوثنية العنيدة المتمكنة ، انتصر .. وإلى الأبد .

وهكذا تقول شواهد التاريخ .

يقول الشيخ على الطنطاوى : (إن لكل أمة يوم عز تستفرغ فيه قوتها ، وتستنفد طاقتها ثم تعود إلى خمولها ، لقد حكمت أسبانيا أوروبا كلها يومًا من الأيام ثم نامت ، وبسطت البرتغال سلطانها على أقاصى البحار ثم غفلت .

وركزت فرنسا رايتها على عهد نابليون على كل رابية فى القارة ، وسارت اليونان يومًا تحت راية الإسكندر .. إلى حدود الصين .

واجتاح المغول الأرض يقودهم «جنكيز خان » ثم « تيمور » أجل لكل أمة يوم واحد .. ثم تنام .

إلا هذه الأمة .. أمة محمد ﷺ إنها بدع فى الأمم ، ما فقدت قط رجولتها ولا نبلها من أيام الجاهلية الأولى ، يوم كان العربى ينام ورمحه أمام الدار .. وفرسه مرتبط فى الفناء .

فإذا سمع النذير يقول : واصباحاه . نهض من بين شُعب أهله .. ليستقبل الموت إلى يوم الوثبة الكبرى ، يوم هز محمد ﷺ هذه الحربة النائمة وراء رمال البيد فخرجت تنكس رايات رب المدائن) أ . هـ .

وفى رمضان كانت غزوة بدر الكبرى . وفتح مكة . وغزوة تبوك وحروب الردة وفتح الأندلس . ومعركة الزلاقة..

عين جالوت

وفيها كان القائد المظفر « قطز » يوزع بنفسه الطعام على جنوده قائلاً لهم : العَجَل .. العجل . وكان لهم فى الحرب نعم القدوة ، قال لهم عندما تراءى الجمعان : لا تقاتلوهم حتى تزول الشمس ، وتفىء الظلال . وتهب الرياح ويدعو لنا الخطباء فى صلاتهم .

ولما قُتل جواده ظل واقفًا ثابتًا لا يبرح مكانه حتى يأتيه الجنود بفرس آخر ، وأثناء ذلك .. كان كل أمير فى الجيش يعرض عليه فرسًا .. ولكنه يأبى قائلاً : ما كنت

لأحرم المسلمين من نفعك !! فلما لامه آخرون وأخذوا يحذرونه . لو رآك التتار لقتلوك. فما كان جوابه إلا أن قال : إننى إن قُتلت . . فإلى الجنة ، وأما الإسلام. . فله رب لن يضيعه !

وبانتصار « قطز » يكون قد أنقذ البشرية كلها من دمار محقق . . فله فى عنق الغرب اليوم يد سلفت . . ودين مستحق .

قدوم وفد ثقيف على رسول الله ﷺ فى رمضان من سنة تسع :

تقدم أن رسول الله ﷺ لما ارتحل عن ثقيف سئل أن يدعو عليهم ، فدعا لهم بالهداية ، وقد تقدم أن رسول الله ﷺ حين أسلم مالك بن عوف النصرى أنعم عليه وأعطاه ، وجعله أميرًا على من أسلم من قومه ، فكان يغزو بلاد ثقيف ويضيق عليهم حتى ألجأهم إلى الدخول فى الإسلام ، وتقدم أيضًا فيما رواه أبو داود عن صخر بن العيلة الأحمسى أنه لم يزل بثقيف حتى أنزلهم من حصنهم على حكم رسول الله ﷺ ، فأقبل بهم إلى المدينة النبوية بإذن رسول الله ﷺ له فى ذلك .

وكان ﷺ يأتيهم كل ليلة بعد العشاء : يحدثنا قائمًا على رجليه حتى يراوح بين رجليه من طول القيام ، قال وهب : سألت جابرًا عن شأن ثقيف إذا بايعت قال : اشترطت على رسول الله ﷺ أن لا صدقة عليها ولا جهاد ، وأنه سمع رسول الله ﷺ يقول بعد ذلك : « سيتصدقون ويجاهدون إذا أسلموا » . قال ابن إسحاق : فلما أسلموا وكتب لهم كتابهم أمر عليهم عثمان بن أبى العاص ـ وكان أحدثهم سنًا ـ لأن الصديق قال : يا رسول الله إنى رأيت هذا الغلام من أحرصهم على التفقه فى الإسلام وتعلم القرآن .

فى رمضان سنة ثلاث وخمسين فتح المسلمون جزيرة رودس

افتتحها المسلمون بقيادة : جُنادة بن أبى أمية .

من أسباب النصر :

أ ـ كان الخليفة « معاوية » ﷺ : يدرّ عليهم الأرزاق . والأعطيات الجزيلة .

ب ـ وكان الجنود عند حسن الظن بهم : فقد كانوا قلة .

ولذلك : تسلحوا بحذر شديد حتى لا يؤخذوا على غرة .

كانوا يبيتون فى حصن عظيم ، فيه حوائجهم ودوابهم وحواصلهم ولهم على البحر ما يسمى بالنواطير : تحفظ الزرع والثمر .

وكانت لهم أموال كثيرة . وزراعات غزيرة .

وقد نجحوا فى فرض هيبتهم على كل من كان يريدهم بسوء .

وما زالوا مسيطرين على الجزيرة حتى آل الأمر إلى يزيد بن معاوية بعد أبيه فحولهم من تلك الجزيرة .

فتح الأندلس فى رمضان ٩٢ هـ :

لقد تم فتحها فى عهد الوليد بن عبد الملك . . وكان القائد « طارق بن زياد » .

هذا البطل الذى وصفه الأسبان . . بأنه كان يسير فيما يشبه النزهة العسكرية .

وبفتح الأندلس ترامت أرضنا من : الصين شرقًا إلى الأندلس غربًا .

ومن الأندلس عبر الإسلام إلى قلب أوروبا .

معركة عين جالوت فى رمضان ٦٥٨ هـ :

انتصرنا على التتار . .

هؤلاء الذين لو قدر لهم أن ينتصروا لهلك العالم كله.

ويعنى ذلك أن الدنيا كلها مدينة لهذا القائد المسلم « قطز » والذى حافظ بهذا الانتصار العظيم على حضارة الإنسان من أعدائها الهمج !!

وقعة عين جالوت فى الخامس والعشرين من رمضان سنة ٦٥٨ هـ :

فاقتتلوا قتالاً عظيمًا فكانت النصرة ولله الحمد للإسلام وأهله ، فهزمهم المسلمون هزيمة هائلة وقتل أمير المغول كتبغانوين وجماعة من بيته ، وقد قيل : إن الذى قتل كتبغانوين الأمير جمال الدين آقوشى الشمسى ، واتبعهم الجيش الإسلامى يقتلونهم فى كل موضع ، وقد قاتل الملك المنصور صاحب حماة مع الملك المظفر قتالاً شديدًا ، وكذلك الأمير فارس الدين أقطاى المستعرب ، وكان أتابك العسكر ، وقد أسر من جماعة كتبغانوين الملك السعيد بن العزيز بن العادل فأمر المظفر بضرب عنقه، وأستأمن الأشرف صاحب حمص ، وكان مع التتار ، وقد جعله هولاكو خان نائبًا على الشام كله ، فأمنه الملك المظفر ورد إليه حمص ، وكذلك رد حماة إلى المنصور وزاده المعرة وغيرها ، وأطلق سلمية للأمير شرف الدين عيسى بن مهنا بن مانع أمير العرب ، واتبع الأمير بيبرس البندقدارى وجماعة من الشجعان التتار يقتلونهم فى كل مكان ، إلى أن وصلوا خلفهم إلى حلب ، وهرب من دمشق منهم يوم الأحد السابع والعشرين من رمضان ، فتبعهم المسلمون من دمشق يقتلون فيهم ويستنقذون الأسارى من أيديهم ، وجاءت بذلك البشارة ولله الحمد على جبره وإياهم بلطفه فجاوبتها دق البشائر من القلعة وفرح المؤمنون بنصر الله فرحًا شديدًا ، وأيد الله الإسلام وأهله تأييدًا وكبت الله النصارى واليهود والمنافقين وظهر دين الإسلام وهم كارهون ، فتبادر عند ذلك المسلمون إلى كنيسة النصارى التى خرج منها الصليب فانتبهوا ما فيها وأحرقوا وألقوا النار فيما حولها فاحترق دور كثيرة إلى النصارى ، وملأ الله بيوتهم وقبورهم نارًا ، وأحرق البعض كنيسة اليعاقبة ، وهمت طائفة بنهب اليهود ، فقيل لهم : إنه لم يكن منهم من الطغيان كما كان من عبدة الصلبان ، وقتلت العامة

وسط الجامع شيخًا رافضيًا كان مصانعًا للتتار على أموال الناس يقال له : الفخر محمد بن يوسف بن محمد الكنجى ، كان خبيث الطوية ممالئًا ممالنا على أموال المسلمين قبحه الله ، وقتلوا جماعة مثله من المنافقين فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين.

وفى العاشر من رمضان :

وبعد أن ظن الواهمون أننا تلك « القصعة » التى تكالب الأكلة عليها .

ولكننا بعثنا من جديد .. بتلك الطاقة المدخرة فينا والتى فجرها الإيمان فى قلوبنا .

وذلك عندما فرت الأمة من الاستغراق فى لذّاتها .. وقررت أن تدفع ثمن كرامتها .

أجل : انتصرنا فى العاشر من رمضان ، وقد كان من رأينا : أن نحتفل بالانتصار يوم العاشر من رمضان تبركًا به .. وشكرًا لنعمة النصر فى هذا الشهر المبارك .

واختار قوم : أن يكون الاحتفال فى أكتوبر ، وكان من تدبير الله تعالى أن يكون ذلك تمهيدًا للاحتفال بالنصر مرتين . لا مرة واحدة ، فى العاشر من رمضان لا أجازة، وفى السادس من أكتوبر !! في إجازة وهو يوم الحركة المباركة .

أما بعد :

فقد نزل القرآن فى رمضان وهو سلاح النصر والقرآن : فرقان :

وضح معالم الحق والباطل ، فهو حجة لك أو حجة عليك .. ولا ثالث بينهما.

ويعنى ذلك : رفض الموقف الثالث .. وهو الموقف المائع وهو : لا لك .. ولا عليك .

ماذا بعد رمضان :

جعنا فى رمضان .. ويوم العيد نغتبط :

أ ـ بالقول : وهو الصلاة والذكر .

ب ـ والعمل الصالح وهو : الصدقة .

وعلى المسلم أن يستمر كذلك بعد رمضان .. وإلا ... فإن تراجعه بعد رمضان يعنى :

١ ـ أن صيامك لم يقبل .. لأن الحسنة تلد الحسنة ومادمت لم تستمر مستقيمًا فهذا دليل على أنه لم تكن منك حسنة قبل ذلك .

إن رب رمضان هو رب شوال .

فضل الجوع :

يقول ﷺ : « عَرَض علىّ ربى ليجعل لى بطحاء مكة ذهبًا . قلت : لا يارب ولكن أشبع يومًا وأجوع يومًا ، فإذا جعت .. تضرعت إليك وذكرتك ، وإذا شبعت ذكرتك وحمدتك » رواه الترمذى ـ كتاب الزهد .

وبالجوع فى رمضان : يغفر الله الذنب ، ويقبل التوب ، ويمحو الخطايا ، ويرفع البلايا .

العسكرية الإسلامية من خلال غزوة القادسية :

تمهيد :

ذات يوم .. قلت لسائق السيارة .. وهو يسابق الريح : يقول الله عز وجل : ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥) ﴾ ذكرته مشيرًا إلى حطام السيارات ذات اليمين وذات الشمال والتى كانت ثمرة مرة لجنون السرعة ، فلعله أن يذكر .. حتى قرأت أخيرًا ما تفعله « إسرائيل » اليوم .

لقد تعمد المسؤولون هناك بإبراز حطام الشاحنات على جانبى الطريق بالإضافة إلى بعض العمارات المتهدمة بين الحين والحين .

فإذا رحت تسأل عن سر هذا . سمعت ما يلى : إن الدولة هناك تحسن التعامل مع الماضى .

فهى بهذه الشاحنات المحطمة والمبانى المتهدمة ـ تقول للجيل الجديد : تخيّل إلى

أى حد تعرض أجدادك لهذا الدمار !

وإذن فهى محاولة للتعامل مع الماضى ليصبح تاريخًا . تاريخًا محفوراً بذكرياته فى أعصاب الأمة يحفزها دائمًا إلى مواصلة الكفاح ، قبل أن تسقط هذه المشاهد من ذاكرتها ، فتتفقد بمقدار ذلك من طاقاتها .

قالت نفسى : ونحن أولى بهذا التذكير . . تحريضًا لشبابنا ليعلم كيف حفل تاريخنا بأمجاد من شأنها أن تثير فيه فطرة العزة المركوزة فى جبلته ، ليواصل مسيره مدفوعًا بهذا الماضى المجيد إلي مستقبل رشيد .

أجل . . . ليواصل سيره . . لا بمشاهد الدمار . . ولكن بما حفل به ماضينا من أعمال كبار . وبخاصة فى زمن تدعو كل أمة إلى كتابها ، فى زمن كثر فى الإدعاء والتطاول إلى الحد الذى يقول فيه المحق : ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤] بينما يقول المبطل ما حكاه القرآن الكريم عنه : ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١١] .

وكأنما كنت على موعد مع شهر رمضان بالذات . وما حفل به من انتصارات ومواقف من شأنها أن تأخذ بأيدينا إلى التى هى أقوم فى هذا الخضم الهائل من حرب الشعارات .

وطالت وقفتى بالذات أمام موقعة القادسية والتى ركب فيها أعداؤنا من الغرور حتى ضحكوا من نبلنا الذى شبهوه بالمغازل!!

ولكن النهاية كانت لحسابنا . . وحُق لنا أن نقول مع القائلين : (ذلك لتعلموا أن الحروب سجال . والدهر دولاب ، والدنيا ليل ونهار ، والأرض : صعود جبل وهبوط واد . ولكن العبرة بالنهاية . . والأمور بخواتيمها .

إن الذى صنعناه فى رمضان شيء عجيب . تصوروا : لو أن تلاً من الرمال غير ممهد . علوّه عشرين متراً . . ثم كلفت صعوده . . لتعبت ، فكيف إذا كان حوله من يقذفك بالحجارة . ليمنعك من صعوده! فكيف إذا كان بدل الحجارة : الرصاص والبارود !! فكيف إذا كان هذا الرمل يُغطى حصونًا من يابس الصخر ، ومتين الأبرق

و(الأسمنت المسلح) فيها المدافع والدبابات وأقوى المتفجرات) .

ونقـول مع هذا : فكيف إذا تم ذلـك كله فى إطار حـملة دعائـية مغـرضة .. تعرّض بسيوفنا . وبثيابنا !!

ولكن النصر فى النهاية كان حليفنا .. إن الأمر على ما قيل :

وما ضرّ نصل السيف إخلاقُ غمده

إذا كان عضبًا حيثما وجهته سرى !

مدخل :

كلف سعـد بن أبى وقاص من قبـل عمر رضي الله عنهما ، وأتى القـادسيـة ، وبين يدى القادسية .. بث رضي الله عنه سراياه .. وعلى مدى شهر كامل لم ير أحدًا من الفرس .. وأبلغ عـمر بذلك . وخلال ذلك كـانت سراياه تنقـض كالصقور عـلى أطراف بلاد العدو .. ثم تعود « بالميـرة » [الطعام] .. مخلفة من ورائها رعبًـا ملأ على العدو أقطار نفسه .

من آثار السرايا :

وقد بدا أثر ذلك الرعب عندما انطلقت رعايا الـفرس تعجّ عجيجًا : في موجات صاخبة صارخة متجهة إلى يزدجرد الملك تشكو إليه ما تلاقى من المسلمين ... الذين يتحركون على الساحة .. وبلا منازع .. ثم قالوا له مهددين : (إن لم تنجدونا .. وإلا أعطيناهم ما بأيدينا . وسلمنا إليهم الحصون) .

الفرس يستيقظون :

وعلى الفور جـمع الملك مستـشاريه .. مدفوعًا بإحـساسه بالخطر مـدركًا حجم الخسارة لو أنه أبطأ فى النجدة .. وقرر أن يؤمِّر رستم على الجيش الفارسى .. وقبل أن يكون من المغرقين .

رستم يتحفظ على القرار :

ولقد كان اختيـار رستم بالذات موفقًا .. بدليل خبـرته فى الحرب .. والتى بها تحفظ على قرار إسناد القيادة إليه قائلاً : (إن هذا ليس برأى الحرب ..

إن إرسال الجيوش بعد الجيوش أشد على العرب من أن يكسروا جيشًا كثيفًا مرة واحدة) .

يريد أن يقول : إن إرسال جيش من وراء جيش يعززه . . أصعب على العرب الذين يسهل عليهم هزيمة جيش ضخم لو هاجمهم مرة واحدة .

ذلك بأن القائد الحصين لا يدفع بكل قواته إلى ميدان القتال مرة واحدة . . فرارًا من توقع إبادتها .

والحكمة قاضية بتجزئة الجيش إلى فرق : تتقدم فرقة . . ومن ورائها فرق تشد من أزرها .

إصرار الملك :

ومع ذلك فقد ضرب الملك بوجهة نظر رستم عرض الحائط ولم يتراجع عن قراره . . وكان على رستم أن يستجيب . وهذا هو الذى حدث بالفعل .

الموقف على الجبهة الإسلامية :

أرسل سعد إلى الخليفة ملخصًا للموقف العسكرى . . وإلى أى حد كان اختيار « رستم » نذيرًا بضراوة المعركة .

وجاء رد الخليفة طاقة إيمانية يبثها قلب القائد المؤمن . . والذى كانت حاجته إليها من حاجته إلى الأجناد وإلى العتاد : كتب إليه عمر رضي الله عنه يقول : [لا يكذبنّك ما يأتيك عنهم . ولا ما يأتونك به . واستعن بالله . وتوكل عليه . وابعث إليه رجالاً من أهل النظر والرأى والجلدَ : يدعونه فإن الله جاعل دعاءهم توهينًا لهم . وفلْجًا عليهم (ظفرا وفوزًا) واكتب إلى . . . فى كل يوم) .

مغزى خطاب الفاروق :

١ ـ يحذر الخليفة سعدًا أن يستسلم لحرب الأعصاب التى يشنها الأعداء كسرًا للروح المعنوية .

٢ ـ على أن يكون فى الله خير معتصم . . وإنه سبحانه ناصره .

٣ ـ ثم يأمره بتشكيل وفد على مستوى عال من الحكمة . . والتبصر والشجاعة

ليفاوض القائد الفارسى بشأن دخوله فى الإسلام ، واطراح فكرة الحرب حفاظًا على الدماء أن تراق .

وكانت خصائص الوفد المقترح تعبيرًا عن موقف الإسلام الرافض للحرب ابتداء بدليل أنه يختار العقلاء . وليس المتهورين يختار ، والصابرين الذين يفاوضون من موطن العزة إذا أريد لهم الهوان .

٤ ـ ثم كلفه عمر ﷺ أن يكتب إليه كل يوم بتطورات الموقف العسكرى .

وهو بهذه اللفتة الأخيرة يضع مبدأ مسؤولية القائد الأعلى مسؤولية مباشرة عن نتائج المعركة ، ذلك بأن القائد العام حين يعين للمعركة واحدًا فإنما يكلفه فقط بإدارة المعركة . نائبًا عنه .

ولكنه لا يعفى نفسه من المسؤولية التى يتحملها وإن كان بعيدًا عن أرض المعركة ومن أجل ذلك . . فلابد من إبلاغه أولاً بأول . ليكون شريكًا له فيما يؤول إليه الموقف .

التزام القائد :

لما عبأ رستم جيشه الذى بلغ مائة وعشرين ألفًا ـ معها الخيول والفيلة كتب «سعد» إلى الخليفة بذلك . . معتصمًا بالله عز وجل .

ثم وتنفيذًا لأمر الخليفة شكل وفدًا من عقلاء أركان حربه فى طليعتهم : النعمان ابن مقرّن والمغيرة بن شعبة ﷺ .

وإذا كان اختيار المرء قطعة من عقله . . . فقد كان اختيار الوفد دليلاً على فقه القائد المحنك سعد بن أبى وقاص ﷺ .

الوفد المسلم .. يحاور رستم :

بدأ رستم حواره مع الوفد هكذا : قال لهم : ما أقدمكم ؟

فقالوا : جئنا لموعود الله إيانا : أخذ بلادكم . وسبى نسائكم وأبنائكم ، وأخذ أموالكم . فنحن على يقين من ذلك .

ولقد كان لهذا المنطق الصارم أثره الفعال فى أعصاب القائد الفارسى المغرور ،

وكان جزءًا من حرب إعلامية إسلامية يراد بها توهين كيد العدو .

من تدبير الله لدينه :

ومع هذا .. فقد كان من تدبير الله تعالى لدينه أن تأتى الرياح بما تشتهى السفن وما يعد تمهيدًا للنصر المبين .

فقد رأى رستم فى نومه كأن مَلَكًا نزل من السماء . فختم على سلاح الفرس كله . ثم دفعه إلى رسول الله ﷺ . فدفعه ﷺ إلى عمر .

ثم ما كان من سماعه عن شجاعة المسلمين وبخاصة من أحباش الحدود .

يضاف إلي ذلك ما كان عنده من علم النجوم الذى كان يعتقد صحته فى نفسه : كل أولئك له أثره البالغ فى تراخى قبضة العدو على السلاح .. حتى لا يكون دم مستباح .

رستم .. يتراجع :

كان على رستم أن يراجع نفسه بعدما سمع من القوم ما زلزل كيانه . ولكنه طلب من سعد ﷺ أن يبعث إليه برجل عاقل .. عالم بما أسأله عنه .

فبعث إليه المغيرة بن شعبة ﷺ ،وكان بينه وبين رستم هذا الحوار :

قال له رستم : إنكم جيراننا . وكنا نحسن إليكم ، ونكف الأذى عنكم . فارجعوا إلى بلادكم . ولا نمنع تجارتكم من الدخول إلى بلادنا .

وكان واضحًا ما في هذا المنطق من معنى الاستعطاف والتودد . مشفوعًا بوعد ببقاء التبادل التجارى بين الدولتين .

ولكن المغيرة المؤمن .. لم يلهه الكلام المعسول والوعد المبذول عن إبلاغ الطاغية بما يصحح فكرته المغلوطة عن المسلمين .. وفى نبرة حاسمة تقضى على البقية الباقية من تجلده .

وذلك قوله : إنا ليس طلبنا الدنيا وإنما همنا وطلبنا الآخرة ، وقد بعث الله إلينا رسولاً قال له : إنى قد سلطت هذه الطائفة على من لم يدنّ بدينى ، فأنا منتقم بهم منهم ، وأجعل لهم الغلبة . ما داموا مقرّين به ، وهو دين الحق . لا يرغب عنه

أحد إلا ذل . ولا يعتصم به أحد إلا عز .

فقال له رستم : فما هو ؟ فقال : أما عموده الذى لا يصلح شيء منه إلا به فشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . والإقرار بما جاء من عند الله . فقال رستم : ما أحسن هذا ؟ وأى شيء أيضًا ؟ فقال له : والناس بنو آدم وحواء : فهم إخوة لأب وأم . . فقال : ما أحسن هذا . . وأى شيء أيضًا ؟ قال : وإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله . . قال : وحسن أيضًا .

ثم قال رستم : أرأيت إن دخلنا فى دينكم . . أترجعون عن بلادنا ؟ قال : إى والله . ثم لا نقرب بلادكم إلا فى تجارة أو حاجة ، قال : وحسن أيضًا .

قال : ولما خرج المغيرة من عنده ذاكر رستم رؤساء قومه فى الإسلام . . فأنفوا ذلك . وأبوا أن يدخلوا فيه . قبحهم الله وأخزاهم . وقد فعل .

قالوا : ثم بعث إليه « سعد » رسولاً آخر - بطلبه - وهو ربعى بن عامر : فدخل عليه . وقد زيَّنوا مجلسه بالنمارق المذهبة . والزرابى الحريرية . وأظهر اليواقيت . واللآلىء الثمينة . والزينة العظيمة وعليه تاجه . وغير ذلك من الأمتعة الثمينة . وقد جلس على سرير من ذهب .

ودخل ربعى بثياب صفيقة . وسيف وترس . وفرس قصيرة . ولم يزل راكبها حتى داس بها على طرف البساط . ثم نزل وربطها ببعض تلك الوسائد ، وأقبل وعليه سلاحه ودرعه . وبيضته على رأسه . فقالوا له : ضع سلاحك ! فقال : إنى لم آتكم فأضع سلاحى بأمركم . وإنما جئتكم حين دعوتمونى فإن تركتمونى هكذا . . وإلا رجعت .

وعندئذ . . تأزم الموقف وأوشك الحوار أن يصل إلى طريق مسدود وما كان من رستم نفسه إلا أن أنقذ الموقف قائلاً : ائذنوا له !

فأقبل يتوكأ على رمحه فوق النمارق . فخرق عامتها ، فقالوا له : ما جاء بكم؟ فقال : الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله . ومن ضيق الدنيا إلى سعتها . ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، فأرسلنا بدينه إلى خلقه ، لندعوهم إليه : فمن قبل ذلك منا قبلنا منه . ورجعنا عنه ومن أبى قاتلناه أبدًا .

حتى نفضى إلى موعود الله .

قالوا : وما موعود الله ؟ قال : الجنة : لمن مات على قتال مَن أبى .. والظفر لمن بقى . فقال رستم : قد سمعت مقالتكم . فهل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه وتنظروا ؟ قال : نعم !

كم أحبّ إليكم ؟ يومًا .. أو يومين ؟ قال : لا .. حتى نكاتب أهل رأينا ورؤساء قومنا . فقال : ما سنَّ لنا رسول الله ﷺ أن نؤخر الأعداء عند اللقاء أكثر من ثلاث .. فانظر فى أمرك وأمرهم . واختر واحدة من ثلاث بعد الأجل . فقال : أسيدهم أنت ؟ قال : لا ، ولكن المسلمين كالجسد الواحد .. يجير أدناهم على أعلاهم .

فاجتمع رستم برؤساء قومه فقال : هل رأيتم قط أعز وأرجح من كلام هذا الرجل ؟ فقالوا : معاذ الله أن تميل إلى شيء من هذا .. وتدع دينك إلى هذا الكلب !!

أما ترى إلى ثيابه ؟ فقال : ويلكم : لا تنظروا إلى الثياب . وانظروا إلى الرأى والكلام والسيرة ، إن العرب يستخفُّون بالثياب والمآكل . ويصدقون الأحساب .

وتأمل من دروس هذا الموقف ما يلى :

أ ـ كيف اعتز الأعرابى بدينه على رستم وما يرفل فيه من رياش وخدم وحشم .

ب ـ ثم كيف اتسعت حياة العربى البسيط .. ثم ضاقت حياة الغربى على ما يملك من مال ومتاع . وكأنما هو فى مملكته .. وعلى اتساع المكان وامتداد الزمان فهو سجن كبير .. وإن لم يكن لهذا السجن سجان ولا قضبان !!

جـ ـ لقد وصلت الرسالة إلى عقل رستم وقلبه معًا .. ولما حاول إقناع قومه بما رأى وبما سمع .. ضمُّوا إلى غبائهم سوء أدبهم .

د ـ وإذ يحكم الجهلاء على الرجل من خلال ثوبه المرقع . فإن المرء بأصغريه : قلبه ولسانه .. وأنه لا يهمنا سواد « الهر » أو بياضه مادام يصطاد الفئران !!

هـ ـ ثم تأمل كيف كان صوت فرد واحد مسلم .. كيف كان أعلى من صوت

القائد الفارسى . . وفى عقر داره . . ومن ورائه جيش تجاوز المائة ألف جندى .

رستم تأخذه العزة بالإثم :

وكان بإمكان القائد الفارسى أن يكون على الأقل حياديًّا بين الحق على لسان ربعى والباطل . . يمثله قومه .

ولكن سرعان ما أخذته العزة بالإثم فتراجع يُنكس على رأسه وصدره عن الحق ما كان يعبد من دون الله . فطلب فى اليوم الثانى رجلاً فجاءه حذيفة بن مِحْصن فتكلم نحو ما قال ربعى .

وفى اليوم الثالث : المغيرة بن شعبة فتكلم بكلام حسن طويل . قال فيه رستم للمغيرة :

إنما مثلكم فى دخولكم أرضنا كمثل الذباب . رأى العسل فقال من يوصلنى إليه. وله درهمان ، فلما سقط عليه غرق فيه ! فجعل يطلب الخلاص فلا يجده يقول: من يخلصنى وله أربعة دراهم !!

ومثلكم كمثل ثعلب ضعيف دخل جحرًا فى كَرْم . فلما رآه صاحب الكرم ضعيفًا رحمه . فتركه . فلما سمن أفسد شيئًا كثيرًا .

فجاء بجيشه واستعان عليه بغلمانه . فذهب ليخرج . فلم يستطع . لسمنه . فضربه حتى قتله ، فهكذا تخرجوه من بلادنا .

ثم استشاط غضبًا . وأقسم بالشمس . لأقتلنكم غدًا ، فقال المغيرة : ستعلم !!

ثم قال رستم للمغيرة : قد أمرت لكم بكسوة . ولأميركم بألف دينار وكسوة ومركوب . وتنصرفوا عنا !!

فقال المغيرة : أبعد أن أوهنا ملككم . وضعفنا عزمكم . ولنا مدة نحو بلادكم ونأخذ الجزية عن يد وأنتم صاغرون . وستصيرون لنا عبيدًا على رغمكم ! فلما قال ذلك استشاط غضبًا .

وقد اشتعلت الحرب النفسية التى كان النصر فيها حليف ـ المغيرة ـ رضي الله عنه حين نجح فى خروج « رستم » عن اتزانه غضبان أسفًا مؤكدًا فى نفس الوقت هذه المقولة

الخالدة (فكل لسان فى الحقيقة إنسان) .

ولقد كان المغيرة هو اللسان المعبر عن قومه وإن كان فردًا بينما كان الجند هناك وعلى الجبهة الفارسية أصفارًا على الشمال . وحتى قائدهم إنه كان لا يملك اتخاذ القرار الحاسم .

من صور الحرب النفسية :

ومن وراء هذا الحوار الذى أريد به هزيمة الطرف الآخر نفسيًا . . كانت هناك محاولات أخرى . كحلقة فى سلسلة هذه الحرب الإعلامية . ومنها : أن رستم طاول سعدًا فى اللقاء : فلم يخرج من المدائن للقاء سعد بالقادسية يريد بذلك إشعاره بالإهمال كسرًا لخاطره .

وأمر آخر هو : إضجار سعد ومن معه . . فلعلهم أن يراجعوا ولا يكون قتال . وهيهات .

مبادرة إسلامية لحقن الدماء :

قبيل المعركة الفاصلة رأى سعد ﷺ أن يبعث وفدًا من أصحابه إلى كسرى يدعوه إلى الله . قبل الوقعة .

وفعلاً . . وصل الوفد الذى استأذن على كسرى . فأذن له : وكانت مفاجأة لأهل البلد من الفرس . والذين خرجوا : ينظرون إلى أشكالهم : وأرديتهم على عواتقهم . وسياطهم بأيديهم . والنعال فى أرجلهم وخيولهم الضعيفة . وخبْطها الأرض بأرجلها ، وجعلوا يتعجبون منها غاية العجب . كيف مثل هؤلاء يقهرون جيوشهم مع كثرة عَددها وعُددها !!

ولما أستأذنوا على الملك يزدجر أذن لهم وأجلسهم بين يديه وكان متكبرًا . قليل سيئ الأدب .

ثم جعل يسألهم عن ملابسهم هذه . . ما اسمها ؟ يسألهم : عن الأردية . والنعال . والسياط . ثم . . كلما قالوا له شيئًا من ذلك تفاءل . فرد الله فأله على رأسه ا . هـ .

وهكذا وقف الملك ـ وشعبه من ورائه على دينه ـ وقفوا جميعًا عند القشرة البادية، وقفوا عند حدود نظرة البصر . . ثم لم تكن لهم بصيرة ينفدون بها إلى الأعماق . . فكان هذا الحوار العقيم الذى فتحوا به على أنفسهم أبوابًا من العناء ، هب عليهم من خلالها . . ما كسر شوكتهم . وانتهى بهم إلى البوار .

ويمتد الحوار .

قال لهم: ما الذى أقدمكم على هذه البلاد؟ أظننتم أنا لما تشاغلنا بأنفسنا اجترأتم علينا ؟ فقال له النعمان بن مقرن : إن الله رحمنا فأرسل إلينا رسولاً يدلنا على الخير ويأمرنا به ، ويعرفنا الشر وينهانا عنه ، ووعدنا على إجابته خيري الدنيا والآخرة . فلم يدع إلى ذلك قبيلة إلا صاروا فرقتين ؛ فرقة تقاربه وفرقة تباعده ، ولا يدخل معه فى دينه إلا الخواص ، فمكث كذلك ما شاء الله أن يمكث ، ثم أمر أن ينهد (١) إلى من خالفه من العرب ويبدأ بهم ، ففعل فدخلوا معه جميعًا على وجهين : مكروه عليه فاغتبط ، وطائع إياه فازداد فعرفنا جميعًا فضل ما جاء به على الذى كنا عليه من الغداوة والضيق ، وأمرنا أن نبدأ بمن يلينا من الأمم فندعوهم إلى الإنصاف ، فنحن ندعوكم إلى ديننا ـ وهو دين الإسلام ، دينٌ حسَّن الحسن وقبّح القبيح كله ، فإن أبيتم فأمرٌ من الشر هو أهو من آخر شرّ منه الجزاء (٢) فإن أبيتم فالمناجزة . وإن أجبتم إلى ديننا خلّفنا فيكم كتاب الله وأقمناكم عليه على أن تحكموا بأحكامه ونرجع عنكم، وشأنكم وبلادكم . وإن أتيتمونا بالجزاء قبلنا ومنعناكم ، وإلا قاتلناكم .

قال : فتكلم يَزْدجرد فقال : إنى لا أعلم فى الأرض أمة كانت أشقى ولا أقل عددًا ولا أسوأ ذات بين منكم ، قد كنا نُوكل بكم قُرى الضواحي ليكفوناكم ، لا تغزون فارس ولا تطمعون أن تقوموا لهم : فإن كان عددكم كَثُر فلا يغرنكم منا ، وإن كان الجهد دعاكم فَرَضنا لكم قُوتًا إلى خِصبكم وأكرمنا وجوهكم وكسوناكم ، وملكنا عليكم ملكًا يرفق بكم . فأسكت القوم .

فقال المغيرة بن شعبة فقال : أيها الملك ، إن هؤلاء رؤوس العرب ووجوههم ،

---

(١) أى : ينهض ويذهب .

(٢) المراد : الجزية .

وهم أشراف يستحيون من الأشـراف ، وإنما يكرم الأشراف الأشراف ، ويعظم حقوق الأشراف الأشراف ، ولـيس كل ما أرسلوا به جـمعوه لك ، ولا كل ما تـكلمت به أجابوك عليـه ، وقد أحسنوا ولا يحسن بمـثلهم إلا ذلك ، فجاوبنى فـأكون أنا الذى أبلغك ويشهدون على ذلك . إنك قد وصفتنا صفة لم تكن بها عالمًا ؛ فأما ما ذكرت من سوء الحال فما كان أسوأ حالاً منا . وأما جوعنا فلم يكن يشبه الجوع ، كنا نأكل الخنافس والجعـلان والعقارب والحيـات ، ونرى ذلك طعامنا ، وأما المـنازل فإنما هى ظهر الأرض ، ولا نلبس إلا من غَزَلْنا من أوبار الإبل وأشـعار الغنم ، ديننا أن يقتل بعضنا بعضًا ، وأن يـبغى بعضنا على بعض ، وإن كان أحدنا ليـدفن ابنته وهى حية كراهية أن تأكل من طعامه . وكانت حالتـنا قبل اليوم على ما ذكرت لك (وفى المعاد على ما ذكرت لك) فبعث الله إلينا رجلاً معروفًا . نعرف نسبه ونعرف وجهه ومولده فأرضه خير أرضنا ، وحسبه خير أحسابنا ، وبيته أعظم بيوتنا ، وقبيلته خير قبائلنا ، وهو بنفسه كان خيـرنا فى الحال التى كان فيها أصدقنا وأحلمـنا ؛ فدعانا إلى أمر فلم يجبه أحد . أول ترب كان له الخليفة من بعده ، فقال وقلنا ، وصدق وكذبنا ، وزاد ونقصنا ، فلم يقل شيئًا إلا كان ، فقذف اللـه فى قلوبنا التصديق له واتباعه ، فصار فيما بيننا وبين رب العالمين . فما قال لنـا فهو قول الله ، وما أمرنا فهو أمر الله ، ثم فقال : لنا إن ربنا يقول : إنى أنا الـله وحدى لا شريك لى ، كنت إذا لم يكن شىء وكل شىء هـالك إلا وجهى ، وأنـا خلقت كل شىء وإلـىّ يصيـر كل شىء ، وإن رحمتي أدركتـكم فبعثت إليكم هذا الرجل لأدلـكم على السبيل التى أنجيـكم بها بعد الموت من عذابى ، ولأحِلّكـم دارى دار السلام . فنشهد عليه أنـه جاء بالحق من عند الحق ، وقـال : من تابعـكم على هـذا فله مـا لكم وعلـيه مـا عليكـم ، ومن أبى فاعرضـوا عليه الجزيـة ، ثم امنعوه مما تمنـعون منه أنفسـكم ، ومن أبى فقاتـلوه فأنا الحكم بينكم ، فمن قُتل منكم أدخلته جنتـى ، ومن بقى منكم أعقبته النصر على من ناوأه . فاخـتر إن شئت الجزية وأنـت صاغر ، وإن شئت فـالسيف أو تسلم فـتنجى نفسك .

فقال يزدجرد : أتستـقبلنى بمثل هذا ؟ فقال : ما استقـبلت إلا من كلمنى ، ولو كلمنى غيـرك لم أستقبلك به . فـقال : لولا أن الرسل لا تُقتل لقَـتلْتُكم ، لا شىء

عندى . وقال : ائتونى بوقر من تراب فاحملوه على أشراف هؤلاء ، . . . . . ارجعوا إلى صاحبكم فأعلموه أنى مرسل إليه رستم حتى يدفنه وجنده فى خندق القادسية ، وينكل به وبكم من بعده ، ثم أورده بلادكم حتى أشغلكم فى أنفسكم بأشد مما نالكم من سابور . ثم قال : من أشرفكم ؟ فسكت القوم ، فقال عاصم بن عمرو ـ وهم ليأخذ التراب ـ : أنا أشرفهم، أنا سيد هؤلاء فحمّلنيه، فقال : أكذلك؟ قالوا : نعم . فحمله على عنقه فخرج به من الإيوان والدار حتى أتى راحلته فحمله عليها ثم انجذب في السير ليأتوا به سعدًا ، وسبقهم عاصم فمر بباب قُدَيس فطواه وقال : بشروا الأمير بالظفر ، ظفرنا إن شاء الله تعالى ثم مضى حتى جعل التراب فى الحجِر ثم رجع فدخل على سعد فأخبره الخبر . فقال : أبشروا فقد والله أعطانا الله مقاليد ملكهم ، وتفاءلوا بذلك أخذ بلادهم . ثم لم يزل أمر الصحابه يزداد فى كل يوم علواً وشرفًا ورفعة . وينحط أمر الفرس سفلاً وذلاً ووهنًا .

هزيمة الفرس .. قبل الهزيمة !! :

ولقد هزم الفرس نفسيًا . . قبل هزيمتهم عسكريًا ، لقد وجد نفسه أمام دعاة من نوع فريد . كان الواحد منهم داعية إلى الله فى نفس الوقت الذى كان فيه جنديًا يحرص على الموت . . فتوهب له الحياة .

وقد وضح ذلك من هذا الحوار الذى دار عقب هذا اللقاء بين الملك وبين قائدة رستم ، (فقد رجع رستم إلى الملك يسأله عن حال من رأى من المسلمين فذكر له عقلهم . وفصاحتهم . وحدّة جوابهم . وأنهم يرومون أمرًا يوشك أن يدركوه .

وذكر ما أمر به أشرفهم من حمل التراب . . وأنه استحمق أشرفهم فى حمله التراب على رأسه . فقال له رستم : إنه ليس أحمق ! وليس هو بأشرفهم . وإنما أراد أن يفتدى قومه بنفسه .

ولكن ـ والله ـ ذهبوا بمفاتيح أرضنا ـ وكان رستم منجمًا ـ ثم أرسل رجلاً وراءهم وقال : إن أدرك التراب فردّه . . تداركنا أمرنا . وإن ذهبوا به إلى أميرهم غلبونا على أرضنا) أ . هـ .

القائد « الكاسح » صار « كسيحًا » :

ولقد أراد سعد ﷺ أن يسكت اللسان ليتكلم السنان . فجاء ونزل القادسية مع جيشه ثم قال :

لا أدرى لعلنا لا نزيد على سبعة آلاف أو ثمانية آلاف بين ذلك ، والمشركون ثلاثون ألفًا ونحو ذلك ، فقالوا : لا يد لكم ولا قوة ولا سلاح ، ما جاء بكم ؟ ارجعوا . قال : قلنا : ما نحن براجعين ، فكانوا يضحكون من نبْلِنا ويقولون : «دوك دوك » (١) وشبهونا بالمغازل . فلما أبينا عليهم أن نرجع قالوا : ابعثوا إلينا رجلاً من عقلائكم يبين لنا ما جاء بكم . فقال المغيرة بن شعبة : أنا ، فعبّر إليهم ، فقعد مع رستم على السرير فنخروا وصاحوا ، فقال : إنّ هذا لم يزدنى رفعة ولم ينقص صاحبكم . فقال رستم . صدق ، ما جاء بكم ؟ فقال : إنّا كنا قومًا فى شر وضلالة فبعث الله إلينا نبيًا فهدانا الله به ورزقنا على يديه ، فكان فيما رزقنا ـ حبَّة تنبت فى هذا البلد ، فلما أكلناها وأطعمناها أهلينا قالوا : لا صبر لنا عنها ، وأنزلونا هذه الأرض حتى نأكل من هذه الحبَّة . فقال رستم : إذًا نقتلكم . فقال : إن قتلتمونا دخلنا الجنة ، وإن قتلناكم دخلتم النار وأدَّيتم الجزية ، قال : فلما قال : وأديْتم الجزية نخروا وصاحوا وقالوا : لا صُلح بيننا وبينكم . فقال المغيرة : تعبرون إلينا أو نعبر إليكم ؟ فقال رستم : بل نعبرُ إليكم . فاستأخَر المسلمون حتى عبروا فحملوا عليهم فهزموهم .

وذكر سيف : أن سعدًا كان به عرق النسا يومئذ ، وأنه خطب الناس وتلى قوله تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ** ﴾ [الأنبياء :١٠٥] ، وصلى بالناس الظهر ، ثم كبّر أربعًا وحملوا بعد أن أمرهم أن يقولوا : لا حول ولا قوة إلا بالله فى طردهم إياهم،وقتلهم لهم ، وقعودهم لهم كل مرصد، وحَصرِهم لبعضهم فى بعض الأماكن حتى أكلوا الكلاب والسّنانير وما رُد شاردهم حتى وصل إلى نهاوند (٢)، ولجأ أكثرهم إلى المدائن ،ولحقهم المسلمون إلى

---

(١) دوك : كلمة فارسية بمعنى « مغزل » .

(٢) نهاوند : أعتق مدينة فى بلاد العراق .

أبوابها .

أما بعد : فقد كانت وقعة القادسية وقعة عظيمة لم يكن بالعراق أعجب منها ، وذلك أنه لما تواجه الصفان كان سعد ﷺ قد أصابه عرق النسا ، ودمامل فى جسده، فهو لايستطيع الركوب وإنما هو فى قصر متكىء على صدره فوق وسادة وهو ينظر إلى الجيش ويدبر أمره ، وقد جعل أمر الحرب إلى خالد بن عُرْفطة ، وجعل على الميمنة جرير بن عبد الله البجلى ، وعلى الميسرة قيس بن مكشوح ، وكان قيس والمغيرة بن شعبة قدما على سعد مددًا من عند أبى عبيدة من الشام بعدما شهدا وقعة اليرموك .

المسلمون اليوم :

وهكذا . . يركب « رستم » بغلته . . فى محاولة للهروب فاشلة . . ووضع المسلمون نهايته بقتله على هذا النحو المهين . وقل معى :

تلك الآثار تدل علينا فانظروا بعدنا إلى الآثار .

انظر أيها القارئ العزيز . . انظر إلى تاريخك . . واعجب . . بل وتعجب من حالنا اليوم قبل أن تتعجب من حال أعدائنا :

تعجبّوا من حال المسلمين اليوم قبل أن تتعجبوا من اليهود .

فقد أعطينا الكتاب كاملاً تامًا ، واليهود . . لم يبق من كتابهم إلا القليل

بأيدينا نوران : علم وحكمة . . فما بالنا فى حالك الظلمات

إن اليهود لم ينشئوا دولة إلا بعد اتحادهم . . وهم مع ضعفهم إلا أنهم جزء من عقابه تعالى لنا . وقد يبتلى القوى بالضعيف ! وما كان لنا أن ننتصر على تقصيرنا وقبل أن ندفع الثمن !

إن الشعب اليهودى من نسل الأنبياء . ولكنهم لم يحافظوا على هذه النعمة . . فسُلِبوا الملك ، إن فى ذلك لعبرة .

وإن فى ذلك تعجبًا : ابن حاتم الطائى لا يعجب منه أحد إن كان كريمًا . لأن الولد سر أبيه ومن شابه أباه فما ظلم .

ولكن العجب أن يبخل ويشح ابن حاتم الطائى :

تعجين من سقمى ؟ صحتى هى العجب !!

العجب أن يظفر اليهود . الذين ضربت عليهم الذلة والمسكنة . لا أن يظفر أبناء من فتحوا الشرق والغرب . وكانوا سادة الدنيا وأساتيذها :على أننا ما غلبنا . ولا اليهود ظفروا .

إنما غلبت فينا خلائق اليهود . التى دخلت علينا فى غفلة منا : خلائق الانقسام والتردد . وفقد الكتمان . وارتجال الخطط . والإصغاء لمشورة الأعداء .

تقدموا أيها العرب :(يا أيها العرب : هل تدرون ما هو أعظم خطب يمكن أن ينزل بنا ؟ وما هى أدهى مصيبة يُخْشَى أن يصيبنا ؟ لا . . ليست الاستعمار الأجنبى، فسنجاهد حتى لا يبقى فى ديار العروبة ومنازل الإسلام غاصب أجنبى .

وليست مشكلة إسرائيل فسنحارب حتى نسلم إسرائيل إلى عزرائيل !!

ولكن المصيبة : أن نكفر بأنفسنا . وأن نجهل أقدارنا . وألاَّ نعرف فوق الأرض مكاننا ، وأن نحسب أننا خلقنا لنكون أبداً أضعف من الغربيين ، وأجهل منهم . وأن ننسى أن أجدادنا لما خرجوا يفتحون الدنيا ما كانوا أقوى منا على عدونا.

وأنهم أقدموا بسيوف ملفوفة بالخرق على عدو كان أكثر عدداً وأقوى عُدداً وأكثر علماً ومالاً : فظفروا به . وانتصروا عليه . . ولكننا افترقنا . وتباعدنا .

إشراق النهار ليل مظلم : أغمضنا فيه عيوننا . . وأغمدنا فيه سيوفنا . فلم نبصر اللص يدخل علينا ، ولم نَنْهَدْ إليه لنرده عنا .

وحسبنا لطول الليل أن لا صباح له : فقد طلع الآن الصباح . وانقضى الليل . وهبّ النائمون . يمشون إلى الأمام) أ . هـ .

فإلى الأمام .

ومن إنسانيات العسكرية : هذا الخطاب من عثمان ﷺ : فقد ترحم على الشيخين أبى بكر وعمر ﷺ . وذكر بإتسائهما أسوة برسول الله ﷺ ، فقال : (. . . لقد استعملت عليكم الحارث بن الحكم حتى تصلوا إلى عبد الله بن سعد ،

وقد قدمت عليكم عبد الله بن سعد لما علمت من ثقته ودينه وحسن رأيه وشجاعته . وأخذت عليه العهد والميثاق أن يحسن لمحسنكم ، ولا يحمله غرض الدنيا على هلاك رجل واحد منكم ، وأرجـوا لعبد الله أن يقف عند عهـدى وأمرى ، وأوصيكم وإياه أن ألا تهولنكم كثرة العدو ، وقد علمتم ما أنزل الله عليكم حيث يقول : ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [البقـرة:٢٤٥] أما علمتم أن أول هـذه الأمة ما نصروا إلا بكـثرة الصبر وقـوة اليقين ؟ ولا حول ولا قـوة إلا بالله العلى الـعظيم ، أستودعكم الله وهو خير الحافظين سيروا على بركة الله ، وعليه توكلوا ،وبه فاتقوا).

من مكر الأعداء :

هناك حقيقة مقررة وهى : صحة الوحى .. تستدعى صحة ما بنى عليه ولذلك: شدد الأعداء عليه فقالوا :

١ ـ الوحى ظاهرة مرضية .

٢ ـ محمد عظيـم .. بطل .. عبقرى .. ولكن الوحى ظاهرة مرضـية لا يعتد بها ، يريـدون بذلك استبعـاد وصف النبوة والرسـالة ، فإذا كان بطلاً . فـيمكن أن يجود الزمان بمثله .

وإذن .. فلم الاستمساك بهدى يمكن أن يُنسخ بآخر قد يكون خيراً منه !!

الفرق بين الرسول والنبى :

قيل : النبـى من أوحى إليه بشرع يعمل به ولا يبلغه وهذا خطأ : لقوله تعالى: ﴿ قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا ... ﴾ [البقرة:١٣٦] فلا بد أن يبلغ النبى لكن : النبى : يبلغ أحكامًا عامة يتعايش عليها الناس .

الرسول : يفصل الأحكام وعقوباتها .

ونفهم قـوله تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ ... ﴾ [الشورى] فالشـريعة بدأت بنوح . وفرق بين وحى وأوحى .. الوصية تكرار بخلاف الوحى فهو كمال .

آدم : هل هو نبى أو رسول : ذكر فى القرآن ٢٥ مرة لم يوصف بنبوة أو رسالة ولم ينف عنه ذلك ، لكن بـعض الآيات تقرير من الرسالة وبعضهـا يبعث حتى عن

النبوة:

١ ـ ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ ... ﴾ [آل عمران] قالوا الاصطفاء دليل الرسالة .. وفيه بعد قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ ... ﴾ [فاطر] .

٢ ـ ﴿ ثُمَّ اجْتَبَاهُ ... ﴾ لكنا نقول: إن ذكر « فتباب » بعد ذلك يبعده عن النبوة .

٣ ـ ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ﴾ [المائدة] قلنا يجب الوقوف عند درجة الشبه فقط .

آيات تبعده عن النبوة :

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا ... ﴾ .

﴿ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ ... ﴾ ولم يتب فى القرآن العصيان والغواية لرسول ، وهذا الذى أربكنا أربك الصحابة عندما سألوا الرسو ل: أى النبى أول ؟

الأمى :

قيل إن الأمى : من لا يعرف القراءة والكتابة .. وبنوا على ذلك القول بأميته عليه السلام لأنه لا يقرأ ولا يكتب إنه عليه السلام لم يتل ولم يكتب بيمينه ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُو ... ﴾ وفرق بين القراءة والكتابة وكون الرسول لا يقرأ ولا يكتب فهذا لا يعنى كون الأمى يطلق على غير المتعلم ، وسنتناول الموضوع لغة . واصطلاحًا .. ثم شرعًا .

النص ما يفهم منه معنى واحد .. والظاهر ما يفهم منه معنى أقوى من الآخر . وهذا ما فعله الرسول ﷺ مع معاذ بالطريقة الاستنباطية التى يدعى الغرب السبق إليها إجماع الصحابة غير ملزم لأفرادهم ، وإن كان ملزمًا لنا وحجة علينا . ولذا يجب أن نتلمس طريقهم فى التفكير .

لفظ « أمى » فى لغة العرب :

(أم) هو الأصل ومنه : أم الكتاب .. أم القرى سقط رأس الإنسانية ومنشأ العمران .. وفيه المسجد الحرام والطواف حوله يقوى إيماننا .. كما أن السلك الكهربائى كلما لف حول (الركمة) ازدادت قوة الشحن ، والتعبير « بما حولها »

يشير إلى أنها مركز الأرض فنحن نطوى حول هذا المركز .

ومنه الأم : أم موسى .. ومنه المجتمع .. والأمة المحمدية .. وإن إبراهيم كان أمة .. والمنسوب أخذ كل هذه المصافى ، ومنه « القرآن الكريم » أم الكتاب لأنه الأصل والمرجع ، ولذلك لا يطلق « أمى » على من لا يعرف القراءة والكتابة .. إلا بقرينة ولا قرينة .

مجموعة من الأكاذيب :

ويؤكد خروشوف أن الماركسية مجموعة من الأكاذيب وحالة من الرعب ... عندما يذكر أن لينين أبا الشيوعية اضطر إلى التراجع عن كل المبادئ المعلنة لكى يعيد توازن الاقتصاد المتهدم . .وقد أثارت هذه السياسة من عجبهم ويقول لى أحد رجال الأعمال إلى فرنسا : لماذا يصبح العامل الفرنسى شيوعيًا .. إن الدولة الشيوعية لا توفر للعمال ١٠ ٪ مما يوفره النظام الفرنسى للعمال . جرائم التعذيب عطلت عملية التنمية لأن الخائف لا ينتج ... ولا يفكر .. ويقول خروشوف : إن الإنسان لا يستطيع أن يكون عبقريًا فى الوقت نفسه .

يقول عالم الفيزياء أبو الفتيلة الهيدروجينى : لحم تعافه الكلاب - أيام العمل الأسبوعية ٤١ ، أيام العطلة - السبت والأحد - عمل بدون أجر بزعم أنها اختيارية لكن لا يتخلف أحد ، وإن تخلف فالفصل أو المعتقل ، بعد ٧٠ عاما من الثورة لم تصل المعيشة إلى مستوى جيد ، والطلاب المثقفون يخضعون لضغوط هائلة .

الإنفاق لا يكون بقوة السلطان وحدها ، بل إن الإسلام يعتمد فى ذلك على الجانب العاطفى . يقول الله عز وجل : ﴿ **أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ** ... ﴾ [البقرة : ٢٦٦] .

﴿ **وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا** ﴾ [النساء : ٩] .

وبهذا الأسلوب حقق الإسلام الرفاهية للأمة .. بخلاف المذهبين اللذين قلّد كل

منهما الآخر فأثبت كل منهما سوء ظنه فى مذهبه . وضاعت بينهما كرامة الإنسان . التى صانها الإسلام الذى :

١ ـ لم يفرض التقشف .

٢ ـ أباح الزينة بلا إسراف .

التوازن
جوهر الاقتصاد الإسلامى

وذلك ما يشير إليه قوله عز وجل :

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ [الفرقان : ٦٧] .

لم يسرفوا بالإنفاق فى وجوه الترف . . بل ينفقون فى مصالح المجتمع .

ولم يقتروا : بحرمان أنفسهم من الضرورات .

والمجتمع سعيد بحركة أموالهم . إنه التوازن .

﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ [الليل: ٥ ـ ٧] . إن المؤمن يُعان على الخير الذى سهله الله تعالى له . . إذا بذل .

﴿ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ [الليل: ٨ـ١٠] إن البخيل : سوف يعقد الله له سبله ـ وذلك بسوء اختيار العبد وإذن: فالإعطاء لله يرسخ عواطف الخير .

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا ... ﴾ [طه : ١٢٤] .

وليس إلى غير ذلك مما يزعمه الماديون ، ثم كان من ثمرات الاقتصاد الإسلامى :

١ ـ وقى الله المسلمين مما تورط فيه خصوم العقيدة ، من الرأسماليين . . الذين تورطوا فى حربين عالميتين . . ومما تورط فيه الشيوعيون الذين دمروا حرية الفرد .

٢ ـ وقى الله المسلم من ذل الفقر بالزكاة . حال العجز ، وبتحريم الربا : فى التعامل .

٣ ـ سداد دين الميت من قبل الحاكم . جاء فى كتاب الفرائض للبخارى : « أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم : فمن مات وعليه دين . ولم يترك وفاء. فعلينا قضاؤه » .

أ ـ وما فى ذلك من تخفيف حساب الميت .

ب ـ ثم دفع ذلك الدين عن ورثته .

أما بعد : فليس هناك علم غربى .. وعلم شرقى كما يحلو للماديين أن يقرروا وإنما هناك : علم إسلامى .. وعلم غير إسلامى !

فالماديون يقولون : الموجود : هو فقط المحسوس ، المحسوس بواحدة من حواسنا الخمس ، ويعنى ذلك هدم الدين من أساسه . لأن ما يقررونه يعنى الكفر بالوحى الأعلى .. وما جاء به من « غيب » لا يحس مثل : الجنة والنار . والنبوة . والرسالة .. ووجود الخالق سبحانه ، فكل هذه الحقائق لا تدرك بواحدة من هذه الحواس لأن أساسها الإيمان بالغيب .

الاقتصاد الإسلامى مؤسس على عقيدة :

ومن ثمرات ذلك :

١ ـ الإنسان مالك : محكوم بأمر الله : ﴿ **فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ** ﴾ [الجمعة : ١٠] .

٢ ـ الإنسان حر فى ممارسة أى نشاط محكوم بالأخلاق .

٣ ـ المجتمع المستوعب لهذا النشاط المبارك ليس إلا مجموعة هؤلاء المالكين .. والذين من خصائصهم :

أ ـ لا أنانية .

ب ـ ولا ربا .

جـ ـ والتعاون على البر والعدل .

وهو بهذا المعنى يحقق أركان الاقتصاد وهى :

١ ـ الحرية .

٢ ـ العدالة الاجتماعية .

ولا يلجأ الإسلام هنا للتعريف وإنما هى الصورة المعبرة : ﴿ **وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ** ﴾ [البقرة : ٢٦٥] .


الفهرس

•• الفهرس ••

الموضوع — الصفحة

مدخل ٥

الآيات الإنسانية ٦

شبهات مردودة ٦

الفصل الأول : الإنسان فى مرآة القرآن ١١

بين الخوف والرجاء ١٥

الإنسان من العدم إلى الوجود ١٨

من صور الخطاب الدينى ٢٠

جذور الإنسان ٢١

من دلائل القدرة ٢١

من أسرار الابتلاء ٢٢

من مظاهر الفضل الإلهى ٢٢

ولماذا السمع والبصر ؟ ٢٣

نعمة الاهتداء ٢٣

وسائل الهداية ٢٤

المعاندون .. وماذا سيلاقون ؟ ٢٦

عقبى الذين اتقو وعقبى الكافرين ٣٠

من معالم الخطاب الإسلامى ٣٣

من خصائص الأبرار ٣٦

الموضوع الصفحة

من الأثرة إلى الآثار ٤٠
تمهيد ٤٠
كرامة الإنسان فى الميزان ٤٣
ما هو الخوف ؟ ٤٤
وماذا يخافون ؟ ٤٥
جزاء الصابرين ٤٦
إنسانية الإسلام مسموعة ومرئية ٥٠
تمهيد ٥٠
شرف العمل ٥٠
مغزى الموقف ٥١
الجزاء الإلهى ٥٢
العمل القليل والعطاء الجزيل ٥٤
الصبر الجميل زاد الدعاة ٥٦
والذكر معوان على أحداث الزمان ٥٩
ويعنى ذلك من دروس الدعوة ٦٠
من سنن الله تعالى العامة........................ ٦٢
القضايا العامة أو السنن الإلهية من خلال الأربعة أجزاء الأولى فى
القرآن الكريم ٦٥
من السنن العامة فى السنة المطهرة ٦٨
المتعة القليلة والعاقبة الوبيلة ٦٩

الموضوع	الصفحة
نهاية المطاف	٧٢
الإنسان .. هناك	٧٤
وقد ورد فى هذا المعنى	٧٥
دور الأسرة	٧٦
هذا الإنسان	٧٧
الفطرة الصافية	٧٨
الفصل الثانى : من الإنسان إلى الأكوان	٨١
مدخل	٨٣
أهمية الدراسات الكونية	٨٤
تمهيد	٨٤
أهمية دراسة الكونيات	٨٦
دلائل التوحيد فى صنع الله تعالى	٨٦
من وسائل تحصيل العلم فى القرآن	٨٧
١ ـ استعمال البصر مع العقل	٨٨
٢ ـ استعمال السمع مع العقل	٨٨
٣ ـ استعمال السمع والبصر مع العقل	٨٨
٤ ـ استعمال جميع وسائل المشاهدة مع العقل	٨٨
كلمات الله	٨٩
العلم الحديث والدعوة	٩٠
المكتشفات العلمية والدعوة	٩٠

الموضوع	الصفحة
شبهات وردها	٩١
سأصرف عن آياتى	٩١
من سلبيات الحضارة	٩٤
المخترعات للطنطاوى	٩٤
نماذج وصور	٩٥
جواز المرور	٩٦
من أسرار مملكة الطير	٩٦
من الكون .. إلى المكون سبحانه	٩٧
بداية النهضة الحديثة	٩٧
علاقة الإنسان بالكون	٩٨
نعمة الظل	١٠٠
الشمس ... والداعية !	١٠٣
الجبال	١٠٣
لماذا السحاب ؟	١٠٤
مدى أهمية هذه الدراسات فى الدعوة	١٠٦
صورة من واقعنا	١٠٦
تأملات فى الآيات القرآنية	١٠٨
لماذا التلاحق والتتابع ؟	١٠٨
دلائل الحضارة	١٠٩
النواة	١٠٩

الموضوع — الصفحة

الحبوب ١٠٩
حمل الأشجار ووضعها ١١٠
النخلة ١١٠
لماذا خص الثمرة ... بدل الزهرة ؟ ١١١
من أسرار الحمل ١١١
وقفة تأمل ١١٢
الأم بين الحمل والولادة ١١٤
الحكمة الإلهية وراء عدة المرأة ١١٧
الوراثة والتشوهات الخلقية ١١٨
ولا تضع إلا بعلمه ١١٩
الوضع ١١٩
تعقيب ١٢٠
مثال للقسم الأول « المعلومات الخاصة » ١٢١
مثال القسم الثانى « القواعد العامة للكون كله » ، « سنن الله الكونية » ١٢٢
مثال آخر لسنن الله الكونية ١٢٢
الفصل الثالث : إنسانية الإسلام فى الحروب العسكرية ١٢٧
مدخل ١٢٩
انتصاراتنا فى رمضان ١٣٠
قبل بدر ١٣١
تشكيل هذه السرايا ١٣١

الموضوع	الصفحة

التمزق على الجبهة المعادية ١٣١
رفع الروح المعنوية ١٣٢
فى الطريق إلى بدر ١٣٢
إرادة القتال ١٣٣
من أخلاق رفاق السلاح ١٣٣
موقف القائد الجديد « خالد » ١٣٣
عودة ابن الجراح ١٣٤
موقف أبى عبيدة ١٣٤
سبب إسلام « جارودى » ١٣٥
من أساسيات الإسلام ١٣٥
بعد المعركة . . معاملة الأسرى ١٣٦
من معانى فتح مكة ١٣٦
قدوم وفد ثقيف على رسول الله ﷺ فى رمضان من سنة تسع ١٣٨
فى رمضان سنة ثلاث وخمسين فتح المسلمون جزيرة رودس ١٣٩
من أسباب النصر ١٣٩
فتح الأندلس فى رمضان ٩٢ هـ ١٣٩
معركة عين جالوت فى رمضان ٦٥٨ هـ ١٤٠
وقعة عين جالوت فى الخامس والعشرين من ومضان سنة ٦٥٨ هـ ١٤٠
وفى العاشر من رمضان ١٤١
أما بعد ١٤١

الموضوع | الصفحة

ماذا بعد رمضان ؟ ١٤١
فضل الجوع ١٤٢
العسكرية الإسلامية من خلال غزوة القادسية ١٤٢
تمهيد ١٤٢
مدخل ١٤٤
من آثار السرايا ١٤٤
الفرس يستيقظون ١٤٤
رستم يتحفظ على القرار ١٤٤
إصرار الملك ١٤٥
الموقف على الجبهة الإسلامية ١٤٥
مغزى خطاب الفاروق ١٤٥
التزام القائد ١٤٦
الوفد المسلم .. يحاور رستم ١٤٦
من تدبير الله لدينه ١٤٧
رستم .. يتراجع ١٤٧
وتأمل من دروس هذا الموقف ما يلى ١٤٩
رستم تأخذه العزة بالإثم ١٥٠
من صور الحرب النفسية ١٥١
مبادرة إسلامية لحقن الدماء ١٥١
هزيمة الفرس .. قبل الهزيمة ! ! ١٥٤

الموضوع الصفحة

القائد « الكاسح » صار « كسيحًا » ١٥٥
المسلمون اليوم ١٥٦
من مكر الأعداء ١٥٨
الفرق بين الرسول والنبى ١٥٨
آيات تبعده عن النبوة ١٥٩
الأمى ١٥٩
لفظ « أمى » فى لغة العرب ١٥٩
مجموعة من الأكاذيب ١٦٠
التوازن جوهر الاقتصاد الإسلامى ١٦٢
الاقتصاد الإسلامى مؤسس على عقيدة ١٦٣
الفهرس ١٦٥

تم الصف والإخراج الفني
بمركز الصفا للكمبيوتر
مصر - منية سمنود - دقهلية
ت : ٠٥٠٦٤٩٢١٧٨ محمول : ٠١٢٧٥١١٠٠٣